مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م ٣٢ ع ٢، ص ص: ١٣١ - ١٧١ (٢٠٢٤م)
DOI:10.4197/Art.32-2.5

الدلالات التاريخية للتراث الشعري الشعبي في عسير خلال القرن الثالث عشر الهجري

علي بن عوض آل قطب

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية

alawasiri@kku.edu.sa

المستخلص. تبحث هذه الدراسة في التراث الشعري الشعبي بوصفه يحملُ دلالات تاريخية مهمة، تؤشر على العديد من الأحداث التاريخية الجسيمة التي مرت بها عسير خلال القرن الثالث عشر الهجري، كما تحاول أن تستقصي العديد من النماذج الشعرية المتعلقة بالأحداث التاريخية في عسير، وتتوخى رصد ما حفظته الذاكرة الشعبية من قصائد وأبيات شعرية، قيلت في مناسبات سياسية متعددة، ومتفاوتة زمنياً. إن هذا الدراسة تستهدف من جهة أولى حفظ ما يمكن حفظه من التراث الشعري الشعبي بوصفه مصدراً مهماً من مصادر تاريخ عسير، لأن ذلك من شأنه أن يسهم في توثيق العديد من الأحداث التاريخية، فضلاً عن كون هذه الدراسة من جهة أخرى تروم استنطاق دلالاته التاريخية بما يمكن توظيفه، والاستئناس به، وعليه فإن هذه الدراسة تضع نفسها كأنموذج تطبيقي لكيفية التعامل مع التراث الشعري الشعبي في مجال البحث التاريخي، بحيث يمكن أن تكون دليلاً يُحتذى به من الناحيتين البحثية والمنهجية.

الكلمات المفتاحية: عسير، التراث الشعبي، الدلالات التاريخية.

المقدمة

تزخر ذاكرة المجتمع في عسير بالعديد من الأشعار والقصائد الشعبية التي جاء انتقاؤها حفظاً، وتوارثاً، وتداولاً، كتعبير عما ينسجم مع هذا المجتمع قيمياً وأخلاقياً، وكتجسيدٍ لحفظ الأحداث التاريخية المؤثرة في وجدانه، والمؤثرة في تصوره عن شخصيته، سواءً كانت هذه الأحداث مرتبطة بالمجال الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو الديني، أو الأخلاقي.

وفي المجال السياسي ثمة مخزون من التراث الشعري الشعبي لم يزل عالقاً في ذاكرة المجتمع في عسير، شكّل هذا التراث تصوراً لدى الإنسان في عسير عن تاريخه السياسي، كما حمل أهمية كبيرة باعتباره

مادةً مصدرية يمكن التعويل عليها، وتوظيفها في فهم العديد من الأحداث التاريخية في عسير، وتغطية جانبٍ من جوانب تاريخها، كما يمكن أن يفهم من خلاله نفسية المجتمع العسيري آنذاك حيالها، وما يعتمل في مخياله[١] العام بشأنها.

لقد جاء هذا التراث الشعري الشعبي في عسير على لسان عددٍ من الشعراء النابهين، المتفاعلين مع الأحداث التاريخية التي مرّت بها منطقة عسير، ولأن هذه القصائد اتسمت بالجزالة في الألفاظ، والقوة في المعاني فضلاً عن كونها تحمل مضامين ذات أبعاد رمزية للمجتمع في عسير، فقد أدى ذلك إلى تفاعل المجتمع الكبير معها بحيث استودعها واستودع شخصياتها، وقائليها، ذاكرته التاريخية، فظلّت الأجيال تلو الأجيال تسرد هذه القصائد، وتتغنى بهذه الأبيات.

على أن أبيات أو قصائد التراث الشعري الشعبي في عسير لم تكن موغلة القدم، بل كانت في معظمها صادرة عن القرنين الهجريين الماضيين، ومردّ ذلك يعود إلى الأحداث التاريخية الكبيرة التي شهدتها عسير إبانهما، علاوة على كون هذه الأشعار في جوهرها لم يكن الحامل لها سوى الرواية الشفهية، والتي كانت بطبيعتها ذات نفسٍ زمني قصير، ذلك أن توالي الأزمان والدهور كفيلُ بطيّها في غياهب النسيان فضلاً عن كون هذا التوالي من شأنه أن يقدّم بعض الزيادات والإضافات التي قد تحيل الرواية الشفهية إلى أسطورة، أو يزيل بعض المعلومات والدلالات – بما ينسجم مع مخيلة المجتمع – التي تؤدي إلى انزياحٍ عن الحقيقة التاريخية التي قيلت في ضوئها هذه الأشعار، ورويت من أجلها المرويات.

ولأهمية مثل هذا النوع من القصائد والأبيات الشعرية من الناحية التاريخية، ولأنها قد تكون مفيدة كمادةٍ مصدرية للبحث التاريخي في عسير، فقد رأيت أن أقدّم دراسة عنها، ترصدها، وتقدم مقارباتٍ عنها، وتكشف سياقاتها التاريخية، وفي سبيل كل ذلك قسمت هذه الدراسة إلى مبحثين اثنين، بناءً على الفترات التاريخية التي قيلت فيها هذه القصائد، وهي على النحو التالي:

---

(١) مخيال: مفهوم مأخوذ من الجذر اللغوي (خيل)، يحيل إلى معانٍ عدة في القاموس العربي التقليدي كالظن، والغيم الواعد بالمطر، والخداع، والوهم، بيد أن هذا المفهوم باتت له قيمة جليلة بعد أن غذّاه الفلاسفة الغربيون لا سيما الفرنسيين بمعانٍ جديدة، حيث وظفوه في مشاريعهم النقدية، والمرتبطة أساساً بحقبة ما بعد الحداثة، وعلى ضوء ذلك جرى استخدامه مؤخراً في الفضاء الثقافي العربي بحيث بات يعني المخزن الذي يشتمل على الصور والتمثلات والرموز والحكايات والأساطير التي تشكلت تاريخياً في ذاكرة جمعية لمجتمعٍ ما. للتوسع في معرفة هذا المفهوم وتطوراته الدلالية في السياقين العربي الإسلامي والغربي. انظر: الشبة، محمد: مفهوم المخيال عند محمد أركون، منشورات ضفاف، بيروت، ط١، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م، ص١٣ – ٢٤.

- المبحث الأول: الدلالات التاريخية للشعر الشعبي إبان الدولة السعودية الأولى ١٢١٥ – ١٢٣٣هـ / ١٨٠٠ – ١٨١٨م.
- المبحث الثاني: الدلالات التاريخية للشعر الشعبي الخاص بمقاومة العثمانيين وتمدد نفوذ أمراء عسير العسكري ١٢٣٨ – ١٢٨٨هـ / ١٨٢٣ – ١٨٧١م.

أرجو أن أكون قد وفقت فيما أصبو إليه، ونسأل الله التوفيق والسداد.

المبحث الأول: الدلالات التاريخية للتراث الشعري الشعبي إبان الدولة السعودية الأولى ١٢١٥ – ١٢٣٣هـ / ١٨٠٠ – ١٨١٨م

انضمت عسير إلى كنف الدولة السعودية الأولى في سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م، حيث بعث الإمام عبد العزيز بن محمد[١] حملة عسكرية، يقودها ربيع بن زيد الدوسري[٢]، وكان معه بعض الزعامات والقيادات العسكرية من أبناء عسير الموالين للدولة السعودية الأولى، على رأسهم عددُ من أسرة آل المتحمي، مثل الأميرين محمد بن عامر أبو نقطة المتحمي[٣] وأخيه عبد الوهاب[٤] وغيرهما، ويبدو أن ميدان العمليات

(١) عبد العزيز بن محمد بن سعود: الإمام الثاني من أئمة الدولة السعودية الأولى، بويع بالإمامة بعد وفاة والده عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م، وفي عهده امتد نفوذ الدولة السعودية الأولى ليشمل نجداً، والحجاز، وعسير، والمخلاف السليماني، والأحساء، وكان عهد هذا الإمام موصوفاً بالرخاء والأمن والاستقرار، اغتيل يرحمه الله في شهر رجب من عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م وهو يصلي صلاة العصر في مسجد الطريف بالدرعية . انظر سيرته لدى: ابن بشر، عثمان بن عبد الله، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ط٤، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج١، ص٢٦٤– ٢٧٧.

(٢) ربيّع بن زيد الدوسري: رئيس المخاريم من الدواسر، تبنى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وناصرها منذ أن وفد إلى الدرعية عام ١١٩٩هـ / ١٧٩٩م، ثم أصبح أميراً على منطقة وادي الدواسر، وقائداً عسكرياً للعديد من الحملات السعودية على جنوبي الجزيرة العربية، ومنها حملته على عسير عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠. للمزيد عنه انظر: ابن بشر، مصدر سابق، ج١، ص١٥٥، ٢٧٨.

(٣) محمد بن عامر أبو نقطة المتحمي: أمير من أمراء عسير، لا يُعرف في ضوء المصادر التاريخية التي أمكن الاطلاع عليها تاريخ ولادته، غير أن شهرته جاءت من تبنيه لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث أقرّته الدرعية أميراً على عسير، تابعاً للدولة السعودية الأولى، وكان ذلك في عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م، توفي بالجدري أثناء عودته إلى عسير عام ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م. انظر: الحفظي، الحسن بن علي: مجموع في تاريخ عسير، تحقيق: علي بن الحسن الحفظي وعلي عوض آل قطب، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م، ص١٦٤، ١٦٥.

(٤) عبد الوهاب بن عامر المتحمي: أمير من أمراء عسير، لم تحدد المصادر التاريخية التي أمكن الاطلاع عليها تاريخ ولادته، تولى الإمارة في عسير خلفاً لأخيه محمد بن عامر أبو نقطة، وُصف بالشجاعة، والإقدام، والحزم، كانت له جهود كبيرة في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى على الحجاز، والمخلاف السليماني، ونجران، قُتل في معركة وادي بيش عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م. انظر أخباره لدى: الحفظي، مجموع في تاريخ عسير، ص١٦٥ – ١٧٨.

العسكرية لهذه الحملة العسكرية متعددة، انتهت في النهاية إلى دخول عسير ضمن نفوذ الدولة السعودية الأولى، وتولي الأمير محمد بن عامر أبو نقطة المتحمي لمقاليد السلطة في عسير[١].

في هذا السياق تبدو الذاكرة التاريخية في عسير لا تحتفظ بالتفاصيل المتعلقة بهذه الأحداث، باستثناء البيت الشعري المتداول على ألسنة الرواة، والقار في الذاكرة التاريخية بعسير، حيث جاء فيه:

انحن عسير مزرّقة (الأرماح)[٢] والدين معطينه بلا درماح[٣]

هذا البيت – بصرف النظر عن تداوله ضمن الذاكرة الاجتماعية – أورده الباحث آل زلفة[٤] في إحدى دراساته في سياق تناوله لحملة ربيع بن زيد الدوسري، ورغم أن ثمة اختلافات طفيفة في ألفاظ البيت أعلاه في المرويات الشفهية[٥] لكن هذه الاختلافات لا تغير من بنيته، ومعناه، بل تؤكد صحته، فضلاً عن كونها تتعاضد على مفردة "الدرماح" بحيث كانت هذه المفردة ثابتة على هيئتها في كل روايات البيت السابق. والحال أن البحث في المدلول اللغوي لهذه المفردة، يشير إلى حلاقة الرأس، فالشيء المتكور يسمى مدرمح[٦]، ما يؤكد صحة هذا المعنى أن آل زلفة أردف هذا البيت بسوق رواية شفهية مفادها أن ثمة غديراً في

(١) لمعرفة التفاصيل التاريخية بذلك. انظر: ابن مسفر، السراج المنير في سيرة أمراء عسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص٢٩ – ٣٣؛ النعمي، هاشم بن سعيد: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الأمانة العامة لمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٩م، ص١٣٤، ١٣٤؛ آل فائع، أحمد بن يحيى: دور آل المتحمي في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى على عسير وما جاورها، مطابع الحميضي، الرياض، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٤٢.

(٢) مزرّقة الأرماح: أي الطاعنون بالرماح، جاء في لسان العرب المزراق من الرماح، هو الرمح القصير، ويقال: "وقد زرقته زرقاً إذا طعنه أو رماه به". انظر: نظر: ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، المجلد٣، ص١٨٢٨.

(٣) آل زلفة، محمد عبد الله: دراسات من تاريخ عسير الحديث، ص٢٣.

(٤) محمد عبد الله آل زلفة: مؤرخ، وأكاديمي سعودي، ولد في رفيدة قحطان بعسير سنة ١٣٦٤هـ، وتلقى علومه حتى نال الدكتوراة في التاريخ الحديث من جامعة كامبريدج في بريطانيا عام ١٩٨٧م، عمل أستاذاً مشاركاً في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود في الرياض، وفي عام ١٤١٨هـ عين عضواً بمجلس الشورى، له عشرات المؤلفات في تاريخ عسير، والتاريخ السعودي. انظر: الحقيل، عبد الكريم بن حمد: معجم المؤرخين السعوديين، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٨٩.

(٥) من روايات هذا البيت: قل له عسير تسحق البارود والحق معطينه بلا درماح. رواية وليد إبراهيم الزيداني، مقابلة شخصية في يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ، بمنزله في الشعبين برجال ألمع.

(٦) لا يزال لفظ: (مدرمح) دارجاً ومتداولاً في اللهجة المحلية، ويقال دوماً للرجل الأصلع، أو الرجل مفرط البدانة.

المغوث[١] يسمى غدير الدرماح، حيث "جُزّت رؤوس كثير من الناس جبراً"[٢]، وهذه الرواية بقدر ما تعطي مصداقية لهذا التأويل، فإن التأويل عينه يشد من أزر الرواية الشفهية من حيث صحتها كواقعة تاريخية.

وبصرف النظر عن هذه الرواية الشفهية، وما تحيل إليه، فإن ما يؤكد المدلول اللغوي للفظة (الدرماح) من حيث كونه يفيد بحلاقة الرأس، ومن حيث كونه محايثاً لحملة ربيع بن زيد أو بالأحرى ناجماً عنها، وجود بعض المعلومات التاريخية المتسقة مع هذه المقاربة، فقد أفرد العلامة عبد الرحمن الحفظي في تاريخه عنواناً جانبياً سمّاه (درماح الناس)[٣]، كما أورد في أثناء رصده لبلوغ حملة ربيع بن زيد الدوسري إلى المغوث أن الأهالي في عسير حلقوا رؤوسهم[٤]، عطفاً على أن المؤرخ الحجازي رفيع[٥] ساق روايةً عن أحد العلماء الحفظيين المعاصرين لهذا الحدث مضمونها "أن الجيش الذي غزا عسيراً من الدواسر ألزم من دخل في الطاعة حلق رأسه إظهاراً لقبول الدعوة، والتخلي عما كانوا عليه من عوائد الجاهلية وأن ذلك العام تسمى في عسير بعام الدرماح"[٦].

ولكي تتضح ملابسات هذه الحملة العسكرية، وحيثياتها، وما يرتبط بهذا البيت الشعري الذي أمسى قاراً في الذاكرة الاجتماعية في عسير، ومعدوداً ضمن تراثها الشعري، لا بد من العودة إلى الوراء قليلاً لمعرفة سياقه التاريخي، وما يحف بظروف هذه الحملة التي كانت ذات نتائج سياسية كبيرة في تاريخ عسير الحديث، ويمكن تلخيص ذلك في أن الدولة السعودية الأولى ما إن تمكنت من توحيد نجد بالكامل مطلع

---

(١) آل زلفة، محمد عبد الله: دراسات من تاريخ عسير الحديث، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣.

(٣) الحفظي، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الملك العسيري، (مخطوط)، ورقة: ١، أصله في مكتبة علي بن الحسن الحفظي، ولدى الباحث نسخة منه.

(٤) المصدر السابق، ورقة: ٢.

(٥) محمد عمر بكر بن عبد الكريم رفيع ، مؤرخ ، ورحالة ، وخطّاط ، وتربوي ، ولد بمكة عام ١٣١٧هـ ، وكان والده من وجهاء مكة وأعيانها ، درس دراسة تقليدية ، واتصل بحلقات العلماء في الحرم المكي ، وكان كثير الأسفار ، فزار الهند ، وجزر الملايو والمشرق العربي مثل مصر ، والعراق ، والكويت ، وفلسطين ، ولبنان ، كما زار تركيا ، واليونان ، وفي عام ١٣٥٩هـ رُشّح مديراً لمدرسة رجال ألمع ، ورحل إليها في ١٠ / ١١ / ١٣٥٩هـ وظل فيها حتى نهاية سنة ١٣٦١هـ ، حيث عاد إلى مكة، ثم انتقل بعدها إلى مصر مديراً مالياً لإدارة البعثات السعودية . عاد بعدها إلى مكة. ترك مؤلّفين في التاريخ هما: في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ)، ومكة في القرن الرابع عشر الهجري، توفي في ١٢ / ٢ / ١٣٩٨هـ. انظر: صحيفة مكة، ٢٠ ذو الحجة ١٤٣٥هـ / ١٥ أكتوبر ٢٠١٤م.

(٦) رفيع، في ربوع عسير، هامش ص١٧٧.

القرن الثالث عشر الهجري[١]، ثم الأحساء في النصف الثاني من العقد الأول من القرن عينه[٢]، حتى رمت ببصرها غرباً باتجاه الحجاز، وعسير، ولأن الدولة السعودية الأولى ناصرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتبنّتها، حيث كانت هذه الدعوة بمثابة الغطاء الشرعي لمد نفوذ الدولة السعودية الأولى السياسي والعسكري، فإن قياداتها السياسية والعسكرية كانوا ينتجون خطاباً متماهياً تماهياً مطلقاً مع خطاب دعوة الشيخ محمد، ومنظومتها الفكرية، بحيث كان هو السائد عند مخاطبة القوى السياسية في الجزيرة العربية. ولا ريب أن هذا الخطاب لتأثيره الديني البالغ، واستمداده بتأصيلات شرعية وعقدية أدّى إلى أن يحظى باستجابة كبيرة من لدن بعض الفئات المؤثرة والقوى الاجتماعية في عسير، يأتي كل هذا مواكباً لحملات السعوديين المتكررة على بيشة التي تمثل البوابة الشرقية الشمالية لمنطقة عسير، والتي كان آخرها تلكم الحملة العسكرية التي شددت الحصار على المدينة حتى تمكنت من ضمها في سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م[٣].

ومنذ ضم بيشة بدأت منطقة عسير تأخذ منعرجاً تاريخياً مهماً، تمثّل ذلك في إعلان العديد من الفئات والقوى الاجتماعية الولاء للدولة السعودية الأولى، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مثل: علماء آل الحفظي، علاوة على الأميرين محمد الملقب بـ (أبو نقطة) وعبد الوهاب ابني عامر المتحمي، وطبقاً لأحد المصادر التاريخية فقد ارتحل هذان الأميران إلى الدرعية، ومكثا برهة من الزمن هناك، ثم عادا إلى عسير، وطفقا يكرسان لنفوذ الدولة السعودية الأولى، بيد أنهما وجدا ممانعة شديدة ألجأتهما إلى العودة إلى الدرعية، مما حدا بالإمام عبد العزيز بن محمد إلى بعث حملة ربيع بن زيد الدوسري عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م يرافقه هذان الأميران[٤].

---

(١) لم تتمكن الدولة السعودية الأولى من بسط نفوذها على كامل منطقة نجد إلا في مطلع القرن الثالث عشر الهجري أي بعد مضي أكثر من ستين عاماً على اعتلاء الإمام محمد بن سعود للسلطة في الدرعية عام ١١٣٩هـ/١٧٢٧م. لمعرفة تلكم التطورات المتعلقة بتوحيد نجد، انظر: العثيمين، عبد الله الصالح: تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج١، ص٩٩ – ١١٩.

(٢) لمعرفة التفاصيل التاريخية المتعلقة بضم الأحساء. انظر: ابن بشر، عثمان بن عبد الله: عنوان المجد في تاريخ نجد، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بن عبد الله آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ط٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج١، ص١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠٠ – ٢٠٦؛ العثيمين، تاريخ المملكة، ج١، ص١٢٥ – ١٣٢.

(٣) ابن بشر، مصدر سابق، ج١، ص٢٥١.

(٤) وفادة الأميرين المتحميين للدرعية في هذا الوقت، لا يعني مطلقاً عدم ارتحالهم من قبل إليها، فأحد الباحثين استنتج أن هجرتهما إليها كان متعدداً ومتفاوتاً زمنياً، بيد أن إعلان الولاء الكامل للدولة السعودية الأولى، والجهر به، ومحاولات ضم منطقة عسير إلى كنف الدولة السعودية الأولى حدث بعد ضم بيشة عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م. لمعرفة كيفية تسرب مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبد

إن المتمعن في فحص المصادر التاريخية، والمقارن لما تستبطنه من دلالات سيخرج بنتيجة مفادها أن منطقة عسير قبيل عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م قد وقعت في حالةٍ من الاحتراب الداخلي بين فريقين متضادين، الفريق الأول يمثله الموالون للنفوذ السعودي، وهؤلاء هم بعض الفئات الاجتماعية مثل: آل المتحمي، وبعض علماء آل الحفظي، فضلاً عن المكونات القبلية في شرق إقليم عسير، خاصة قبيلتي قحطان، وشهران. والفريق الثاني تمثله المكونات القبلية في عمق إقليم عسير، لا سيما تلك العشائر الواقعة في الجبال الغربية المكتنفة لأبها، والقاطنة في أعلى المتن السروي، فضلاً عن المكونات القبلية التهامية. وفي هذا السياق يورد المؤرخ اليمني جحاف نصاً مهماً يصف هذا الاحتراب، ويسمي المكونات القبلية المنخرطة فيه، فيقول: "وكانت بينهم وبين عبد العزيز ملاحم، تجهز عليهم فيها سالم بن شكبان، وابن قرملة، وربيع، وابن قفلة، وكانت عسير تجمع قبائلها فتصاولهم، وجرت بيهم وبين قبائل شهران، ورفيدة، وعبيدة، عداوات وتخطفات"(١). هذا النص المهم يتسق مع ما ذكره شاكر في تاريخه من حروب ووقائع عسكرية دارت بين الفريقين، حيث كان يقود الفريق المناوئ الأمير محمد بن أحمد اليزيدي، الذي كانت مقر إمارته في بلدة السقا، غربي أبها(٢).

ويبدو أن ممانعة هذا الفريق لنفوذ الدولة السعودية الأولى، والمجابهة الشديدة لأنصاره، هي التي أجبرت الأميرين محمد وعبد الوهاب ابني عامر المتحميين على الارتحال إلى الدرعية في غضون عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ويفهم من نصوص العالمين العجيلي، والحفظي اللذين شهدا وقائع هذه الفترة، أن خروج هذين الأميرين من عسير إلى الدرعية كان قسراً وإكراهاً(٣)، كما يقرر أحد المصادر أن الأمير محمد بن أحمد اليزيدي هو دون غيره من تولى طرد هذين الأميرين من عسير(٤)، وهكذا أمام ضراوة ممانعة هذا الفريق وممانعة الأمير اليزيدي أصدر الإمام عبد العزيز قراره بحسم المسألة عسكرياً، عبر بعثه حملة عسكرية ضخمة يقودها ربيع بن زيد الدوسري، يقول العلامة الحفظي مؤكداً كثافة هذه الحملة ما لفظه:

الوهاب إلى عسير، والتحولات السياسية التي حدثت فيها بعد ذلك انظر: آل قطب، علي بن عوض: الأمراء اليزيديون، طوى للثقافة والنشر والإعلام، بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ص١٤٤ – ١٦٧.

(١) جحاف، لطف الله بن أحمد: درر نحور الحور العين في أيام الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٤٠٠.

(٢) شاكر، محمود: شبه جزيرة العرب (عسير)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص١٥٢.

(٣) العجيلي، الظل الممدود، ص٢٣؛ الحفظي، نفح العود (مخطوط)، ورقة: ٢.

(٤) الحفظي: زين العابدين، ترجمة الأمير عائض بن مرعي، منشورة في مجلة العرب، المجلد التاسع، (رجب ١٣٩٤هـ إلى جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ)، في مقال بعنوان: دور أمراء عسير في نشر الدعوة السلفية، عبد الله بن علي بن حميد، ص٨٦٣.

"فجهز عبد العزيز إلى جهتنا جيشاً عظيماً، حطّوا[١] حجلا[٢]، ودخلوا المغوث[٣]، ومقدمهم ربيع بن[٤] زيد أمير وادي الدواسر، وتبعه سيف[٥] من أهل بيشة، وذلك في رجب سنة ١٢١٥هـ[٦]"[٧]، النص هنا لا يقرر كثافة حملة ربيع الدوسري فحسب، بل يفيد بوصول حملة أخرى، مكونة من أهل بيشة، ومن المؤكد أن هذا المدد العسكري ما كان غرضه إلا حسم المعركة نهائياً، وضم عسير كاملةً إلى نفوذ الدولة السعودية الأولى.

ويفهم من بعض المصادر التاريخية أن الأميرين المتحميين[٨] كانا من ضمن هذا الجيش، ومن قياداته المعتبرة فيه، حيث اخترق الجيش منطقة عسير من جهة الشرق، ورابط في حجلا[٩]، ولا ريب أنه وقع فيها معركة لم تعقه عن التقدم حيث اتجه صوب الجبال الغربية من أبها التي تشكل بؤرة الممانعة لنفوذ الدولة السعودية الأولى، ومن المرجح أنه اتجه بعد ذلك صوب بلدة طبب[١٠] معقل الأميرين المتحميين، ثم اتجه بحسب نص العلامة الحفظي في تاريخه إلى الجنوب الغربي حيث قرى المغوث، ومن المرجح أن

---

(١) في الأصل: حطّو.

(٢) حجلا: بكسر الحاء، وسكون الجيم، مجموعة قرى متناثرة لبني مالك عسير، تقع في الناحية الشرقية من مدينة أبها، بينها وبين خميس مشيط، وتعد قاعدة بلاد بني مالك، ومقر مركز الإمارة. انظر: الحربي، علي إبراهيم ناصر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (منطقة عسير)، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت، ١٤١٨هـ، ج١، ص٤٤٤ – ٤٤٦.

(٣) المغوث: اسم عريق ذكره الهمداني في القرن الرابع الهجري، وهو يُطلق على وادٍ خصيب مشهور، ينحدر من قمة تهلل، ويخترق قرى باحة ربيعة، ويفيض في وادي طبب أحد روافد وادي تيّة. انظر: الهمداني، الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢٣٠؛ الحربي، المعجم الجغرافي، ج١، ص٢٠٧.

(٤) في الأصل: ابن. وقد صححناها في سائر المخطوط دون الإشارة إلى ذلك.

(٥) سيف: ليس له ترجمة في المصادر التي أمكن الاطلاع عليها.

(٦) ١٨٠٠م.

(٧) الحفظي، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة: ١.

(٨) الأميران المتحميان: أي الأمير محمد وأخيه عبد الوهاب ابني عامر المتحمي، والمتحمي لقب لأسرة عريقة تعود إلى بني حسن، وهي عشيرة تسكن قرى وادي طبب، تعود إلى قبيلة ربيعة ورفيدة وبني ثوعة، إحدى قبائل عسير السراة. انظر: الحفظي، مجموع في تاريخ عسير، ص٦٩.

(٩) المصدر السابق، ورقة: ١.

(١٠) طبب: بفتح الطاء، والباء، اسم لبلدة تاريخية مشهورة، تقع إلى الشمال الغربي من مدينة أبها بحوالي بضع وثلاثين كيلاً، وهي معقل أمراء آل المتحمي من قبيلة ربيعة ورفيدة، ومقر حكمهم إبان الدولة السعودية الأولى. للاستزادة انظر: الحربي، المعجم الجغرافي (عسير)، ج٢، ص١٠١٤ – ١٠١٦.

سلوك الجيش لهذه الطريق غرضه فرض هيمنته على هذه البؤرة، وفي الوقت عينه التوجه إلى السقا[١] مقر الأمير محمد بن أحمد اليزيدي، وعند وصول الجيش إلى المغوث تفيد بعض المصادر أنه اصطدم بجيش الأمير اليزيدي حيث أسفرت هذه المعركة عن انتصار حملة ربيع بن زيد الدوسري عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م، ومقتل الأمير اليزيدي[٢]، وتقويض تكوينه السياسي، وتأسيس إمارة آل المتحمي التابعة للدولة السعودية الأولى والمستمدة شرعيتها منها.

هذه هي التفاصيل الحافة ببزوغ البيت الشعري المتعلق بعام الدرماح، ذلك أن مقاتلي حملة ربيع بن زيد ومن معهم عندما استتب لهم الأمر بعد معركة المغوث، وأعلن خصومهم استسلامهم وولاءهم للدولة السعودية الأولى رأى مقاتلو هذه الحملة المنتصرون ضرورة حلق رؤوس خصومهم، يقول الحفظي في تاريخه حيال هذا الفعل:

"وعاهد أهل السراة وتبعهم أهل تهامة، ونواحي بلاد عسير في ذلك الشهر، وحلقوا رؤوسهم، وهو العام المشهور بالدرماح"[٣]، وبسبب هذا الفعل الجماعي الذي اجتاح المنهزمين، جاء البيت الشعري على لسان أحد الأهالي:

انحن عسير مزرّقة الأرماح والدين معطينه بلا درماح

ومن الواضح هنا أن البيت يضمر استنكاراً لهذا الفعل، واستهجاناً له، ما يؤشر على أن قائله هو أحد المنتمين إلى فريق المعارضين والمنهزمين، فبعد أن أثنى على بسالة المقاتلين في عسير الذين مانعوا

---

(١) السقا: بلدة من بلدة تاريخية عريقة، تقع إلى الغرب من مدينة أبها، تسكنها عشائر من بني مغيد، مثل: آل يزيد، وآل تمام، وآل فلاح، وينحدر من آل يزيد أمراء عسير، مثل: الأمير سعيد بن مسلط، والأمير علي بن مجثل، والأمير عائض بن مرعي. انظر: آل قطب، الأمراء اليزيديون، ص٦٥ – ٨٠.

(٢) آل زلفة، دراسات من تاريخ عسير الحديث، ص١٩؛ آل فائع، دور آل المتحمي، ص١٤٢. ويجدر التنويه أن المؤرخ الفرنسي مانجان ذكر أن هذه الأحداث كانت في عام ١٨٠٢م، أي في غضون عامي ١٢١٦ و ١٢١٧هـ، وأن قبيلة ربيعة التي هي أحد جذمي قبيلة ربيعة ورفيدة هي التي ظلت معارضة للدعوة، ومن الواضح أن هذا المؤرخ قد وقع في خلط حيث ظن أن وقعة المغوث التي دارت في وسط ديار قبيلة ربيعة كانت نتيجة معارضة هذه القبيلة، وهذا غير دقيق، خاصة مع استحضار أن الأميرين المتحميين المناصرين للدولة السعودية ينحدران من هذه القبيلة، ولعل المنطقي والأقرب إلى الصحة أن ديار هذه القبيلة كانت مكان المعركة بين جيش الأمير اليزيدي وجيش الدعوة ، وكان ذلك في النصف الثاني من عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م. لمعرفة ما ذكره هذا المؤرخ الفرنسي. انظر: مانجان، فيلكس: تاريخ الدولة السعودية الأولى من كتاب (تاريخ مصر في عهد محمد علي)، ترجمة: محمد خير البقاعي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص٣١٠.

(٣) الحفظي، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة: ١.

نفوذ الدولة السعودية الأولى[١]، وكونهم من أولئك المقاتلين الذين يجيدون الطعن بالرماح والضرب بها، يقرر الشاعر أن هؤلاء المقاتلين متدينون من دون حلاقة رأس، ولا ريب أنه –أي الشاعر– إذ يقرر هذا ويؤكده، فإنه يستهدف البُعد الديني المسيطر على وعي مقاتلي حملة ربيع بن زيد، بوصفهم يؤمنون إيماناً مطلقاً بالمنظومة الفكرية والعقدية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويمتثلون لها في أعمالهم، وسلوكهم، ووعيهم، وعليه فكأن الشاعر هنا يروم الإخبار بأن قومه مذعنون للدين، معترفون بسيادة المنظومة الفكرية والدينية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من دون أن يثبتوا ذلك بحلاقة رؤوسهم!

من خلال كل ذلك، يتضح أن البيت الشعري يربط هذا الفعل بالإطار الديني، وتحديداً بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، غير أن هذه القراءة على ما يبدو لم يأخذ بها آل زلفة كُلياً، إذ فسّره بكونه فعلاً محايثاً للمحددات الثقافية التي ينطلق منهم المقاتلون المنتصرون الذين في حملة ربيع بن زيد، حيث رآهم من أولئك المنتمين إلى بادية نجد، والأطراف الشرقية لبادية قحطان، وشهران، والدواسر، معتبراً أنهم قد "فهموا الدعوة الإصلاحية بطريقة خاطئة، نتيجة جهلهم بروح الإسلام السمحة، حينما أجبروا المواطنين على أمور لا تمت إلى مبادئ الدين في شيء مثل حلق الرؤوس وتسليم السلاح الشخصي"[٢]. وفي مقابل هذا التحليل، فإن (أبو داهش) وإن قرر هذه الواقعة في أحد أبحاثه[٣]، فإنه لم يتوقف عندها، بل مرّرها كما جاءت دون تفسير موضوعي لها، وربما أن مردّ ذلك غرابة هذه الواقعة، وأن تفسيرها موضوعياً يندّ عليه، أو ربما أنه لم يرد أن يثرّب على بعض أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لتحيزات فكرية معينة، أو تعاطفٍ مضمر تجاههم، على أن الرحالة الحجازي محمد عمر رفيع في تاريخه، توقف عند هذا الفعل، ناقلاً عن أحد المؤرخين الحفظيين أن الإجبار بالحلق أتى "إظهاراً لقبول الدعوة، والتخلي عما كانوا عليه من عوائد الجاهلية"[٤]، وهذا النص يقدم تفسيراً دينياً جلياً لهذا الفعل، ويربطه مباشرة بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولئن كان رفيع لا يستفيض في تفسير هذا الفعل، بحيث يبدو توقفه عند هذا النص مبرراً

---

(١) جاء تحديد المقاتلين العسيريين هنا بكونهم مانعوا نفوذ الدولة السعودية الأولى، في إشارة واضحة إلى أن مقاتلين آخرين من أبناء عسير كانوا مؤيدين لنفوذ الدولة السعودية الأولى، مثل: أمراء ال المتحمي ومن لحق بهم، والعديد من مقاتلي المكونات القبلية في عسير، مثل: العشائر المنتمية إلى قبيلتي قحطان وشهران.

(٢) آل زلفة، دراسات من تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ص٢٣.

(٣) أبو داهش، عبد الله بن محمد، حوليات سوق حباشة، ع١٦، س١٦، مطابع الحميضي، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٣١، وهامش ص٣٣.

(٤) رفيع، في ربوع عسير، ص١٧٧.

ومشروعاً، كونه ليس متخصصاً في تاريخ عسير، ولا ممعناً في استقصائه، فإن الباحثين السابقين كان يتعين على كليهما الإفاضة في تأويله، والغوص في دلالاته، وإبراز مضمراته، لا سيما مع استحضار كونهما رائدي البحث التاريخي الأكاديمي عن عسير، وعليه فقد كانت دروب بحثيهما تقتضي أن يتحققا من مسألة ضلوع بعض أفكار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومنظومتها الدينية في هذا الفعل، عبر استقراء التراث الديني لها، وعبر الإيغال في قراءة نصوص رموزها، وفحص نتاج شخصياتها المحورية التي قادت التنظير لهذه المنظومة، وأحكمت بأفكارها الوعي الديني لأتباعها.

وحين ننظر إلى التراث الديني للدعوة، ونراقب بعض نصوصه، ونتدبرها فقد ورد فيها ما يحيل إلى وجود أصلٍ ثابت لهذا الفعل، حيث ورد على لسان الشيخ عبد العزيز بن حمد آل مشرف قوله: "وأما السؤال الخامس عن حلق الشعر فالذي تدل عليه الأحاديث النهي عن حلق بعضه، وترك بعضه، فأما تركه كله فلا بأس به، إذ أكرمه الإنسان، كما دلت عليه السنة الصحيحة، وأما حديث كليب فهو يدل على الأمر بالحلق عند دخوله في الإسلام إن صحّ الحديث"(١). ويضيف هذا الشيخ أن الغاية من وراء هذا الفعل كون" كفار زماننا لا يحلقون فصار في عدم الحلق تشبهاً بهم"(٢). وإلى جانب هذا النص ثمة نص آخر في أحد مصادر التراث الديني للدعوة، انطوى على اعتراف واضح بإجبار خصوم الدعوة على حلق رؤوس خصومهم، حيث ورد فيه: "وأما الذي يسبل الشعر، ويجعله وسيلة إلى الكفر والردة، فنحلق رأسه رغماً عنه، وإخلافاً لعقيدته الفاسدة، إذا ظننا به الشر"(٣).

وفائدة هذا النص تكمن في كونه فضلاً عن ربطه فعل حلاقة الرأس بالتفسير الديني، فإنه من جهة أخرى يعد أمارة من أمارات الانصياع المطلق للمنظومة الدينية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولأنه على هذا النحو فقد كان ما يخالفه كضرورة منطقية أمارة من أمارات معارضتها، وبالتالي معارضة نفوذ الدولة السعودية الأولى، ولعل هذا الأمر هو المفسر لما ذكره أحد المؤرخين اليمنيين من أن مسألة التحليق كانت شعاراً لأتباع الدعوة حيث يقول عنهم إنهم لا يقبلون "من أحد الدخول فيما هم فيه حتى يحلق رأسه"(٤)،

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (لبعض علماء نجد الأعلام)، جمع: عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤٠٩هـ، ج٤، القسم الثاني، ص٥٧٨.

(٢) المصدر السابق، ج٤، القسم الثاني، ص٥٧٨.

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، ط٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٩، ص٢٨٠.

(٤) عبد الكريم، محسن: لفحات الوجد، (مخطوط)، ورقة: ٣٠، صورة منه في مكتبة سمير حسن آل هادي، ولدى الباحث نسخة منه.

ويضيف هذا المؤرخ نقلاً عن مؤرخ يمني معاصر للدولة السعودية الأولى قوله: "بلغني أنه حلق ناس من أهل تهامة رؤوسهم على ضوء السراج، نحو ستمائة رجل في ليلة واحدة"[١].

وبصرف النظر عن تفسيرات ومقاربات هذا الفعل، وكون الفكرة الدينية المنبثقة من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي الثاوية[٢] وراء تطبيقه على هذا النحو فإن من المؤكد أن هذا الفعل واكبته رغبة المنتصرين الجامحة في إثبات هيمنتهم، وانتصارهم، بحيث ربما حمل نوعاً من النكاية في أولئك الممانعين الذين على ما يبدو كانت ممانعتهم شديدة، وضارية.

بعد توطيد النفوذ السعودي في عسير، وبعد تولي أمراء آل المتحمي للسلطة في عسير، بذل هؤلاء الأمراء جهوداً كبيراً في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى غرب وجنوبي الجزيرة العربية، لا سيما في فترة الأمير عبد الوهاب التي كانت بين عامي ١٢١٧ – ١٢٢٤هـ / ١٨٠٢ – ١٨٠٩م، وحيال ذلك ثمة أبيات مشهورة لم تزل عالقة في ذاكرة المجتمع في عسير، وهي أبيات منسوبة إلى أحد شعراء قبيلة آل عاصمي[٣]، حين خاطب الإمام سعود في مكة سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م قائلاً:

مرحباً وأهلين يا شيخ النفور[٤] ما يعزّك يا ابن مقرن عزّنا

(١) المصدر السابق، ورقة: ٣٠.

(٢) ثاوية: من فعل ثوى أي أقام واستقر، والثوي هو المقيم المستقر، مؤنثها ثويّة، وثوى بالمكان أي نزل فيه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، ص٥٢٤، ٥٢٥. ومعناها في السياق أي أنها هي المستقرة والموجودة.

(٣) آل عاصمي: إحدى الفروع القبلية المهمة لربيعة ورفيدة. انظر: الحفظي، مجموع في تاريخ عسير، ص٦٩.

(٤) شيخ النفور: أي شيخ القوم المستنفرين في القتال، يقال استنفر القوم فنفروا معه، أي نصروه ومدّوه. والنفرة والنفير والنفر: القوم ينفرون معك ويتنافرون في القتال. انظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، ص٤٤٩٨.

قد ملكنا في اليمن تسعة ثغور[١] عاشره مكة محيّر[٢] جندنا[٣]

وهذه الأبيات استهلها قائلها بالترحيب بالإمام سعود، مؤكداً أن عزّ الأئمة السعوديين، هو بالضرورة عزّ لمقاتليه ومؤيديه، وهذا يعني التأييد والولاء الكاملين لأئمة الدولة السعودية الأولى، كما تشير هذه الأبيات إلى الإسهام الكبير الذي قام به أمير عسير عبد الوهاب بن عامر أبو نقطة المتحمي، ومقاتليه في ضم الحجاز، لا سيما مكة إلى كنف الدولة السعودية الأولى، وتثني ثناءً كبيراً على مقاتلي هذا الأمير، بوصفهم على حد تعبير الشاعر قد استولوا على تسعة ثغور في جنوب عسير، أي موانئ ومناطق بحرية في المخلاف السليماني وتهامة اليمن، وضموّها إلى الدولة السعودية الأولى[٤].

وإذا كانت هذه الأبيات تؤشر على ما عملته إمارة آل المتحمي في عسير من أعمال عسكرية أسهمت في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى، فإن ثمة أبياتاً للأمير مداوي بن محمد بن أحمد المتحمي[٥] الملقب بأبي دواس أشار فيها إلى أمراء هذه الأسرة، ودفاعهم المجيد ضد حملات محمد علي باشا، حيث أثنى أولاً على الأميرين محمد وعبد الوهاب ابني عامر أبو نقطة المتحمي، فقال:

---

(١) ثغور: مفردها ثغر، وهو المدينة على شاطئ البحر. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص٩٧. والثغر أيضاً: هو موضع المخافة من فروج البلدان. انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، تحقيق: محمد حسني عبد الرحمن ورمضان عبد المطلب، راجعه وقدم له: عبد الستار الحلوجي، الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٦٣.

(٢) محيّر جندنا: أي مكان استقرار الجنود وتجمّعهم. قيل في لسان العرب: "تحيّر الماء: اجتمع ودار، والحائر مجتمع الماء"، وجاء فيه: "والعرب تقول لكل شيء ثابت دائم لا ينقطع مستحير ومتحير". انظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، ص١٠٦٦، ١٠٦٧. والمقصود أن مكة باتت على حد قول الشاعر مكان استقرار قومه وتجمعهم.

(٣) أورد هذه الأبيات المحقق عبد الله أبو داهش في أثناء تحقيقه لكتاب: العجيلي، محمد بن هادي: الظل الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سعود، مازن للطباعة، أبها، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، هامش المحقق ص٧٣.

(٤) لمعرفة جهود الأمير عبد الوهاب أبو نقطة المتحمي العسكرية، وحملاته المتتابعة على الحجاز. انظر: العجيلي، محمد بن هادي: الظل الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سعود، تحقيق: عبد الله أبو داهش، مطابع مازن، أبها، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٣٢ – ٤٠؛ آل فائع دور آل المتحمي، ص١٤٢ – ١٨٣.

(٥) مداوي بن محمد المتحمي: يلقب بأبي دواس، أمير من آل المتحمي، وشاعر مجيد، كان من ضمن المأسورين الذين أسرهم محمد علي باشا في غزوه لعسير، حيث توفي في أسره. انظر: النعمي، هاشم بن سعيد: شذا العبير من تراجم علماء وأدباء منطقة عسير، منشورات النادي الأدبي، أبها، ١٤١٥هـ، ص٣٤٠ – ٣٥٣.

مثل آل عامر مرادي[١] كل متلاف من دوّخ الحرب في صنعاء والأشراف

والمكرمي قد وزى[٢] منهم بنجرانه[٣]

والشاعر هنا حين يقول (مثل آل عامر مرادي كل متلاف) فإنه يشبههم بالحجارة الكبيرة التي إن تردّت على شيء فإنها تتلفه تماماً، ولا تتركه حتى يتحطم ويفنى، وهذا الوصف يأتي كنايةً عن شجاعتهم، وإقدامهم، كما أشار إلى جهودهم العسكرية في اليمن والمخلاف السليماني ونجران، ولا ريب أن هذا البيت متسقُ تماماً مع ما أوردته المصادر التاريخية حيال أعمال الأمير عبد الوهاب بن عامر أبو نقطة المتحمي في هذه المناطق، ومتسق أيضاً مع روايات المؤرخين المعاصرين له الذين أشادوا ببسالته وإقدامه.

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الأمير طامي بن شعيب المتحمي[٤] فيقول عنه:

ومثل طامي صليب العزم والشور وبيرقه حيث ما لقّاه منصور

وأعطاه رب السماء عفوه وقبلانه[٥]

وهو هنا يشيد بهذا الأمير على المستوى العسكري، من حيث كونه محارباً ظافراً في أكثر معاركه التي خاضها، وبعد ذلك ينتقل إلى بعض أمراء آل المتحمي الآخرين، فيقول:

ومثل أخو سحبة اللي قد قضى الدين ودهمر الحرب في واديه عامين

---

(١) مرادي: جمع مردى أو مرداة، وهو الحجر الذي لا يكاد الرجل الضابط يرفعه بيديه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، ص٦١٩.

(٢) وزى: هي بمعنى اللجوء للحماية والاحتراز. يقال: "استوزى في الجبل واستولى أي أسند فيه، ويقال: أوزيت ظهري إلى الشيء أسندته". ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، ص٤٨٢٩؛ ويقال: "أوزى إليه أي: لجأ". انظر: المعجم الوسيط، ص١٠٣٠.

(٣) النعمي، شذا العبير، ص٣٤٤.

(٤) طامي بن شعيب المتحمي: أمير من أمراء عسير، لم تحدد المصادر تاريخ ولادته، تولى إمارة عسير خلفاً لابن عمه الأمير عبد الوهاب بن عامر المتحمي عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، كانت له أعمال عسكرية بارزة في مد وتثبيت نفوذ الدولة السعودية الأولى على المخلاف السليماني واليمن، فضلاً عن مقاومته الباسلة لحملات محمد علي باشا، حيث شارك بقواته في معارك وادي زهران، والقنفذة، وبسل، غير أن محمد علي باشا بعد هذه المعركة الأخيرة طارده بجنوده حتى تمكن من الاستيلاء على طبب – معقل الأمير طامي ومقر إمارة آل المتحمي – وأسر الأمير طامي، حيث طيفَ به في شوارع القاهرة، ثم أرسله محمد علي باشا إلى اسطنبول، حيث تم إعدامه هناك عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م. انظر أخباره لدى: الحفظي، مجموع في تاريخ عسير، ص١٧٨ – ١٨١.

(٥) المرجع السابق، ص٣٤٤.

وغشي الأقطار دهموره ودخانه

ومثل أخو غامية عدى القياسات تسعين من بندقه هذا اللي مات

غير من بات مكوي بنيرانه

فيا غبوني على الجزار غبنين غبن من قد طاح في الجنب رمحين

في مدقل القوم لا صرخ ولا عانة[١]

وهنا يشيد الشاعر بمن يسميه (أخو سحبة) والذي يظهر أنه الأمير الجزار محمد بن أحمد المتحمي، ثم فارسُ آخر من آل المتحمي الذي سماه الشاعر بـ(أخو غامية)، حيث امتدح شجاعة كليهما، وفروسيتهما، وإقدامهما في الحروب، لينهي الشاعر بعد ذلك مديحه بالتوجع والحسرة على أبيه الأمير محمد بن أحمد الجزار عبر قوله: فيا غبوني على الجزار، باعتبار أن قوات محمد علي باشا أسرته، ونفته إلى مصر سنة ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م[٢].

وإذا كانت خاتمة الأبيات السابقة تئن بالحسرات، والآلام، والأوجاع التي يكابدها الشاعر، فإن ثمة أبياتاً أخرى له، تحمل ذات المضامين، وتنطوي على دلالات مشابهة، بحيث تبدو هذه الأبيات أكثر وضوحاً وإبانةً لمعاني حسرات هذا الشاعر، وآلامه، إذ جاء في بعضها قوله:

كم ملكـــنا قرى[٣] وادٍ منـــيع كان من قبلنا تهـدر جماله

كان قـد هاج منـهم كل عـود وانـثـنى يوم ثنّيـــنا عقاله

نقدم الجند الأحمر[٤] من عسير من نصوا[٥] ديرته يفديك حاله[٦]

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤٥.

(٢) تطرقت العديد من المصادر لحادثة أسر هذا الأمير، انظر: سادلبير، جورج. ف: رحلة إلى الجزيرة العربية، ترجمة: عيسى أمين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٣٥؛ النعمي، تاريخ عسير، ص١٩٩؛ شاكر، عسير، ص١٧٣.

(٣) في الأصل: قرا.

(٤) في الأصل: لحمر.

(٥) في الأصل: نصو.

(٦) المتحمي، مداوي بن محمد (أبو دواس)، قصيدة شعرية مخطوطة، ورقة: ١، أصلها في مكتبة عبد العزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.

لقد بدا جلياً ما عاناه هذا الأمير الشاعر من ظروف صعبة على إثر توالي حملات محمد علي باشا، وتمكنها من إسقاط إمارة آل المتحمي ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، ليسدل بذلك الستار عليها، وتصبح عسير تابعة لحكومة الحجاز، الخاضعة لمحمد علي باشا في القاهرة[١].

المبحث الثاني: الدلالات التاريخية للتراث الشعري الشعبي الخاص بمقاومة العثمانيين وتمدد نفوذ أمراء عسير العسكري ١٢٣٨ – ١٢٨٨هـ / ١٨٢٣ – ١٨٧١م

بعد انحسار نفوذ الدولة السعودية الأولى عن عسير، وما أعقبه من استيلاء إبراهيم باشا على الدرعية سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، وسقوط إمارة آل المتحمي التابعة لها في عسير سنة ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م، دخلت المنطقة في حالةً من الفوضى، والقلاقل، استمرت أربع سنوات[٢]، أي حتى عام ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م حيث شهد هذا العام ثورة الأمير سعيد بن مسلط العارمة، التي استأصلت نفوذ محمد علي باشا من عسير، وكانت إرهاصات الثورة قد بدأت باتفاق المجمعة الذي عقده الأمير سعيد مع بعض المكونات القبلية والعشائرية، ولأن هذه الثورة كانت مفصلية في تاريخ عسير الحديث، فإن التراث الشعري الشعبي في عسير لم يهمل خبرها، أو خبر قيام إمارة الأمير سعيد في عسير عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م، حيث يقول الشاعر معني الناجحي في أبيات له على لون الدمّة:

المجمعة للخير مجمعاً من حيث صلح مغيد وألمعا

والخير أمسى في سعودها

وإذا لبسنا كل مشرعاً فالواجب إنا نسمعا

من يكفر النعمة يعوقها[٣]

---

(١) النعمي، تاريخ عسير، ص١٩٩.

(٢) دخلت منطقة عسير خلال هذه السنوات الأربع في قلاقل واضطرابات، وهو ما يفسر قول إحدى الحوليات التاريخية عن عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م بأنه في هذا العام (انتشر في بلاد عسير الفساد). انظر: الحفظي، إبراهيم بن زين العابدين، حولية في تاريخ عسير، ورقة: ١٠، أصلها في مكتبة علي بن الحسن الحفظي، ولدى الباحث نسخة منها؛ ويفسر أيضاً وصف حولية أخرى لعام ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م وهو العام الذي ثار فيه الأمير سعيد بن مسلط على القوات العثمانية بأنه العام الذي فيه (ذهب الشر)! انظر: مجهول، حولية تاريخية، نشرها عبد الله بن علي بن حميد في مقالة بعنوان: دور أمراء عسير في نشر الدعوة السلفية، ص٨٦٢، منشورة في مجلة العرب، المجلد التاسع، رجب ١٣٩٤هـ إلى جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ.

(٣) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٧.

الشاعر في مطلع أبياته يشيد بالاتفاق القبلي الذي حدث بين بني مغيد ورجال ألمع في ضاحية المجمعة، وهو الاتفاق المشهور الذي تمخض عن إعلان ثورة الأمير سعيد على العثمانيين، جاء هذا الاتفاق بعد أحداث تاريخية مريرة، تتمثل في انهيار المقاومة ضد العثمانيين، ووجود فراغ سياسي كبير ناجم عن سقوط إمارة آل المتحمي، وانحسار نفوذ الدولة السعودية الأولى، وانتشار حاميات محمد علي باشا في أرجاء عسير، واتخاذ طبب مقراً رئيساً للقوات العثمانية، مرتبطة إدارياً بحكومة الحجاز التابعة لمحمد علي باشا.

هذا هو سياق الثورة، أما عن السبب المباشر لها، فقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن حكومة الحجاز في هذه الفترة أي في غضون عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م أرادت إخماد تمرد في منطقة وادي الدواسر، حيث عمدت إلى استنفار المكونات القبلية في عسير للمشاركة في إخماده، وتقرر أن يكون اجتماعها في منطقة السليل شرقي منطقة عسير، وفي أثناء وفود الشوكات القبلية حضر مقاتلو قبيلة بني مغيد، وعلى رأسهم الأمير سعيد بن مسلط[١]، وبحسب المصادر التاريخية، فقد دار جدل بين الشريف محمد بن عون[٢] وبين الأمير سعيد حول تأخر مقاتلي هذه القبيلة، وتحول الجدل إلى خصام عنيف على مرأى ومسمع من المكونات القبلية، أدى ذلك إلى قيام الشريف ابن عون بإهانة الأمير سعيد بن مسلط، ما دعا هذا الأخير إلى الانسحاب إلى عسير، حيث انسحب معه بنو مغيد وعلكم، وبعض شوكات عسير القبيلة[٣]، وفي المجمعة اجتمع هذا الأمير بأعيان بني مغيد ورجال ألمع، وقرروا إعلان الثورة على العثمانيين، وطردهم من إقليم عسير كاملاً، وعلى إثر ذلك حاصر الثوار الحامية العثمانية في بلدة طبب، واستطاع الأمير سعيد ومقاتلوه إجبارها على الاستسلام، كما طرد بقية الحاميات العثمانية الموجودة في عسير[٤]، ونتيجة لهذه التطورات الخطيرة وفي سبيل إنقاذ النفوذ العثماني في عسير زحفت حملةُ عسكرية عثمانية كبيرة، يقودها الشريف ابن عون وعددُ من القادة العثمانيين، غير أن الأمير سعيد ومقاتليه التقى بتلكم الحملة في معركة

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٤؛ شاكر، شبه جزيرة العرب (عسير)، ص١٧٥.

(٢) الشريف محمد بن عبد المعين بن عون: ولد عام ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م، كان من ضمن القيادات العسكرية لعدد من الحملات العثمانية المرسلة إلى عسير، منها حملة عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م، وحملة عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م، تولى شرافة مكة مرتين، وصف بالشجاعة وحسن الإدارة، توفي عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م. انظر: دحلان، أحمد بن زيني: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ط١، ١٣٠٥هـ، ص٣٠٨ وما بعدها؛ البلادي، عاتق بن غيث: الإشراف على تاريخ الأشراف، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣، ص٥٥٩ وما بعدها.

(٣) الحفظي، عبد الرحمن، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة: ٢.

(٤) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٧.

وادي عتود المشهورة عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م[١]، حيث تمكن من تحقيق انتصار كبير عليها، وقتل الكثير من جنودها وقوادها، كان منهم الشريف راجح الشنبري[٢]، كما استغل الأمير سعيد هذه الهزيمة، ليحكم سيطرته على كامل منطقة عسير، ويعلن قيام إمارته المستقلة في عسير، وإلى هذه الأحداث أشار إليها أحد الشعراء حين قال:

يا مرحـــباً وأهلاً بحكام الزمـــان ووالد أســـلم[٣] رأس كل مقـــــدما

قد أخرجوا هزاع[٤] لم عاد له الأمان وسالت أسراب القصور من الدما[٥]

وإذا كانت دمّة معنّي الناجحي توثّق لحظة اجتماع الأمير سعيد بأعيان عسير، واتفاقه معهم على هذه الثورة، وتوثق أيضاً المكان الذي انطلقت منه شرارة الثورة، عبر إشارتها لمنطقة المجمعة التي تعد ضمن ديار بني مغيد[٦]، فإن البيتين السابقين المذكورين آنفاً يؤشران على مقدار الفرح العارم بقيام إمارة الأمير سعيد بن مسلط، ونجاح ثورته في عسير، كما أنهما يرصدان جسارة الأمير سعيد ومقاتليه في حصار طبب، واقتحام أسوارها، وطرد الشريف هزاع بن عون منها.

التراث الشعري الشعبي في عسير وثّق كذلك لبعض الفترات اللاحقة، مثل بعض الأحداث التاريخية الواقعة في عهد الأمير علي بن مجثل[٧] ت: ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م الذي خلف الأمير سعيد بن مسلط في الحكم، جاء توثيقها في سياق التوسع السياسي والعسكري لإمارة الأمير علي بن مجثل في تهامة اليمن،

---

(١) عبد الرحيم، عبد الرحمن: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٥٢.

(٢) البسام، عبد الله بن محمد: تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، دراسة وتحقيق: إبراهيم الخالدي، شركة المختلف، الكويت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٩١.

(٣) ولد أسلم: اسم يطلق على قبيلتي بني مغيد وعلكم. انظر: الحفظي، مجموع في تاريخ عسير، ص٦٩.

(٤) المقصود به الشريف هزاع بن عون، أخو الشريف مكة، عيّنه محمد علي باشا أميراً على عسير بعد الإطاحة بإمارة آل المتحمي عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م.

(٥) النعمي، تاريخ عسير، ص٢٠٧.

(٦) المرجع السابق، ص٢٠٦.

(٧) علي بن مُجثّل: أميرُ من أمراء عسير، كانت إمارته في الفترة ما بين عامي ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م – ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، وصف بالدهاء، والحكمة، والعدل، والتدين، شملت إمارته عسير، والمخلاف السليماني، وأجزاء واسعة من اليمن، وجزر دهلك على القرن الإفريقي، اتسم عهده بالاستقرار والرخاء، ونشاط الحركة الثقافية والعلمية. انظر: الحفظي، تاريخ الملك العسيري، ورقة: ٤٢؛ آل قطب، الأمراء اليزيديون، ص٣٧١–٤٥٠.

وموانئها، وجاء أيضاً في إطار ما ذكرته المصادر التاريخية من تطهير هذه الموانئ من قوات القائد العثماني الألباني تركجة بلماز[١]، ويتلخص خبر هذا القائد في كونه ثار على حكومة الحجاز التابعة لمحمد علي باشا واستولى بفرقته الألبانية على عددٍ من السفن الرابضة في ميناء جدة، ثم اتجه جنوباً، واتصل بالأمير علي بن مجثل[٢]، حيث عاهده على السمع والطاعة، ومعاداة قوات محمد علي باشا، وكان غرض الأمير علي من ذلك هو الاستقواء بمدافع هذا القائد، وبفرقته العسكرية للاستيلاء على الموانئ المحصنة في اليمن، فضلاً عن مدينة (أبو عريش) التي استعصى الاستيلاء عليها بسبب تحصيناتها العسكرية، ومرابطة قوات محمد علي باشا فيها، ونتيجة لكل ذلك تمكن الأمير علي من السيطرة على (أبو عريش)[٣]، ثم وفّر للقائد تركجة بلماز ما يحتاج إليه، حيث استولى على موانئ اليمن مثل: بيت الفقيه[٤]، وزبيد[٥]، واللحية[٦]،

(١) هو محمد آغا قائد الجند غير النظامي في الحجاز، وهو تشكيل عسكري مكون في أغلبه من الجنود الألبان أو الأرناؤوط طبقاً لبعض المصادر المحلية، ويعرف محمد آغا بـ(تركجة بلماز)، وهو يعني: الذي لا يجيد التركية، قاد ثورة عارمة على حكومة محمد علي باشا في الحجاز عام ١٢٤٧هـ، ثم تحالف لاحقاً مع الأمير علي بن مجثل. عن أخبار ثورته انظر: آل قطب، الأمراء اليزيديون، ص٤١٠ –٤٢٠.

(٢) تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن عدة هذا القائد، كانت مكونة من عددٍ من السفن والمراكب، فضلاً عن قوات برية، مشاة وخيالة، حيث كان معه حوالي ثمانمائة فرس. انظر: الحفظي، تاريخ الملك العسيري، ورقة: ٢؛ النعمي، تاريخ عسير، ص٢٢٣.

(٣) الحفظي، تاريخ الملك العسيري، ورقة: ٢؛ عاكش، الضمدي: الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ، ص٢٩٩.

(٤) بيت الفقيه: مدينة من مدن تهامة اليمن، تقع بين زبيد والحديدة، وهي في وسط بلاد الزرانيق، نُسبت إلى الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل المتوفى سنة ٦٩٠هـ. انظر: الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٤، ص٦٣٦.

(٥) زبيد: بفتح الزاي، وكسر الباء، اسم وادٍ مشهور، وبه سمّيت المدينة، وزبيد يشمل أيضاً بلاداً واسعة يحدها شمالاً وادي رمع، وبلاد الزرانيق، ومن الجنوب المخا، وغربيها البحر الأحمر. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن، ج٢، ص٣٨٠ – ٣٩٣.

(٦) اللحية: بضم اللام، وفتح الحاء، وتشديد الياء، مدينة تاريخية عريقة، تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي إلى الشمال من مدينة الحديدة بمسافة مائة وعشرين كيلاً. انظر: المقحفي، إبراهيم بن أحمد: معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ص١٣٧٠، ١٣٧١.

والحديدة[١]، والمخا[٢]، وأصبحت واقعة ضمن نفوذ الأمير علي بن مجثل وكان ذلك في عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م[٣].

لكن القائد الألباني تركجة بلماز وفقاً للمصادر التاريخية أساء السيرة في تلكم المناطق والمدن اليمنية[٤]، حتى استحال حكمه لتلك المناطق إلى فتنة على حد تعبير أحد الشعراء، الذي يقول مخاطباً الأمير علي ومقاتليه، حاضاً إياهم على ضرورة استئصال قوات هذا القائد وتصفيته:

يا الأمير الزاد معنا والركابِ عدتك للحرب ما شيء يفوت

ادخلوا للمخا من كل جانب واقتلوا بلماز والفتنة تموت[٥]!

لقد حشد الأمير علي قوات عسكرية ضخمة، استولى بها في منتصف رجب من عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م على زبيد[٦]، كما سيطر في مستهل شعبان على المخا، بعد تصفية قوات تركجة بلماز تماماً، ورتب شؤونها الإدارية، وأخضعها لحكمه[٧].

ولا تكتفي الذاكرة الاجتماعية في عسير بحفظ هذا الأبيات فحسب، بل حفظت أيضاً الأبيات الشعرية التي أشارت إلى سيطرة مقاتلي الأمير على زبيد، ورغبتهم في الذهاب إلى المخا للسيطرة عليها، حيث يقول الشاعر مخاطباً الأمير علي:

---

(١) الحديدة: مدينة مشهورة على ساحل البحر الأحمر، وهي الميناء الأهم في تهامة اليمن. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن، ج٢، ص٢٥٠، ٢٥١.

(٢) المخا: ميناء مشهور على ساحل البحر الأحمر غربي تعز بحوالي أربعة وتسعين كيلاً، كان له أهمية تاريخية واقتصادية بوصفه أهم مراكز تصدير البنّ اليمني. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن، ج٤، ص٦٩٤؛ المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج٢، ص١٤٤٥.

(٣) مجهول، مخطوط في تاريخ اليمن، ورقة: ٢٢٤، ٢٢٥، نسخة منه في مكتبة جامعة الملك سعود، ولدى الباحث صورة منه؛ حوليات النعمي التهامية، تحقيق: حسين عبد الله العمري، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص١٠٢ – ١٠٥.

(٤) الحفظي، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة: ٢؛ العمراني، محمد بن علي: تحفة أفكار الخيرات بأخبار دولة آل خيرات، (مخطوط)، ورقة: ٦١، نسخة منه في مكتبة علي الصميلي، ولدى الباحث نسخة منه.

(٥) رواية سمير حسن آل هادي، مقابلة شخصية في يوم الأحد ٣ شوال ١٤٤٤هـ، بمنزله في حي العرين مدينة أبها.

(٦) رسالة من الأمير علي بن مجثل إلى العلامة إبراهيم بن أحمد الزمزمي، بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٤٩هـ، مكتبة الأستاذ عبد الخالق بن سليمان الحفظي، ولدى الباحث صورة منها.

(٧) المصدر السابق.

يا الأمير إنا على الهمة نزيد عاقـبة كل نفـس ميّـتة

ودنا سوق المخا يلحـق زبـيد قد وصلنا من بلادٍ فايتة[١]

وإذا كانت هذه الأبيات توثق توسع الأمير علي بن مجثل في تهامة اليمن، فإن ثمة أبياتاً أخرى وثقت تمدد نفوذ خليفته الأمير عائض بن مرعي[٢] ت: ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م في الهضبة اليمنية، باتجاه مدينة صعدة، وبلاد خولان، وبحسب المصادر التاريخية فإن تمدد نفوذ الأمير عائض في تلك النواحي جاء مترتباً على الاضطرابات التي حدثت جنوبي منطقة عسير والتي كانت ناجمة عن تعديات قبيلتي صحار وبني جماعة اليمنيتين على بلاد وادعة[٣]، غير أن المقاتلين اليمنيين فوجئوا بجيشٍ من مقاتلي الأمير عائض، يقوده ابن ضبعان المغيدي ما جعلهم يعودون[٤]، ونتيجة لهذه التطورات وفد أمير صعدة محسن عباس إلى أبها في عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م وعقد معاهدة مع الأمير عائض[٥]، لكن هذه المعاهدة لم تنه التوتر في جنوبي منطقة عسير على خلفية استمرار تعديات قبيلتي صحار وبني جماعة، ما جعل الأمير عائض في عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٧م يسير بنفسه على رأس جيوش كبيرة صوب مناطق هاتين القبيلتين شمالي صعدة، حيث يقول أحد الشعراء:

سلام الله على أمـيرنا عايض مقدم الجلفة ويعرف مراسيــها

بارقه في اليمن شفت له نايض وصقور الطير تعرف مماسيها[٦]

وحين وصل الأمير عائض إلى تلك المناطق دار قتال عنيف بينه وبين القوات اليمنية، من قبائل خولان، وصحار، وباقم شمالي صعدة، انتهت بانتصار الأمير عائض ومقاتليه انتصاراً كبيراً، وضم منطقة

---

(١) رواية علي بن عائض الجوني، مقابلة شخصية في يوم السبت ٩ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ، بمنزله في مدينة أبها.

(٢) عائض بن مرعي، أمير من أمراء عسير، والجدّ الأعلى لأسرة آل عائض التي حكمت عسير خلال فترات مديدة من القرن الثالث عشر، والرابع عشر الهجريين، تولى الإمارة في عسير بعد الأمير علي بن مجثّل، واستمر حكمه حوالي ثلاثة وعشرين عاماً، شمل بلاد عسير، والمخلاف السليماني، وتهامة اليمن. قاوم حملات محمد علي باشا مقاومة كبيرة، وتمكن من هزيمتها، ودحرها، والاستقلال بإمارته، توفي في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م. انظر: عسيري، علي أحمد عيسى: عسير ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م- ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م، (دراسة تاريخية)، مطبوعات نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٥٨- ١٧٤.

(٣) النعمي، تاريخ عسير، ص١٩٨.

(٤) الحفظي، مخطوط تاريخ الملك العسيري، ورقة: ٤٤ رفيع، في ربوع عسير، ص٢٣١، ٢٣٢.

(٥) رفيع، في ربوع عسير، ص٢٣٣.

(٦) رواية فهد بن عبد الله الأحمري، مقابلة شخصية في يوم الأربعاء ٦ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ، بمنزله في حي المنسك بأبها.

باقم، وقبيلة بني جماعة إلى نفوذه[١]، بعد أن تكبدت القوات اليمنية حوالي تسعمائة قتيل، حيث يقول الشاعر:

درك من خولان تسعمائة مخدّم[٢] وأسلم ابن مقيت وأعطانا الرهاين[٣]

وهنا يبيّن الشاعر أن عدد القتلى في الجانب اليمني هو تسعمائة قتيل، وأن ابن مقيت زعيم قبائل خولان بن عامر، أعلن استسلامه للأمير عائض الذي أخذ منه رهائن، كتعبيرٍ عن الخضوع والتبعية.

أما عهد الأمير محمد بن عائض[٤] ت: ١٢٨٨هـ/١٨٧١م الذي خلف والده الأمير عائض في الحكم، فلأن التوترات مع الدولة العثمانية عادت مجدداً، فقد كان رصد هذه العلاقة في التراث الشعري الشعبي حاضراً، إذ جاء في بعض الأشعار قول أحدهم، منبّهاً الأمير محمد على عدم التصالح مع الأتراك:

يا أبو سعد[٥] نسمع من ألمع لا يكون اللوم والذمّـــان في معـــيد الخـــطا

يقــولون ملك التــرك لا عـاده يـزول قد وخذت[٦] الأصلاح وأهبوا لك عطا[٧]

الشاعر هنا لا يخفي عتابه للأمير محمد، إذ يشير إلى أن الناس في رجال ألمع يتناقلون أن الأمير محمد قد قبل التبعية للعثمانيين، كما يشير إلى أنهم حين يتناقلون هذا الخبر، فإنه يصدر عنهم في سياق نقد الأمير محمد ولومه، بل أبعد من ذلك إذ أن هذا النقد واللوم على حد تعبير الشاعر يتعدى الأمير إلى قبيلته التي ينتمي إليها وهي قبيلة بني مغيد التي يطلق عليها مغيد الخطا، كنايةً عن كونها قبيلة شديدة

---

(١) رفيع، في ربوع عسير، ص٢٣٣.

(٢) مخدّم: بضم الميم وتشديد الدال، أي قتيل.

(٣) رواية علي عائض الجوني السابقة.

(٤) الأمير محمد بن عائض بن مرعي: أمير من أمراء عسير في الفترة ما بين عامي عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م – ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م اشتهر عهده بالقوة والاستقلال، وشملت إمارته كامل أرجاء عسير، والمخلاف السليماني، وأجزاءً من اليمن. حاولت الدولة العثمانية الحدّ من نفوذه فمنحته رتبة الباشوية، واعترفت بإمارته، غير أنه ظل يشكّل خطراً على وجودها في الحجاز واليمن، كان آخرها استهدافه لميناء الحديدة في اليمن، مما جعلها ترسل حملة عسكرية ضخمة، حيث تمكنت بعد قتال شرس من قتله في عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م وأسر حوالي ستمائة رجل من عسير، ونفيهم إلى البلقان التابع لأراضي الدولة العثمانية آنذاك. انظر: عسيري، مرجع سابق، ص١٧٤ – ١٨٢.

(٥) أبو سعد: كنية الأمير محمد بن عائض.

(٦) هكذا تنطق، وتعني (أُخذت).

(٧) رواية وليد إبراهيم الزيداني، مقابلة شخصية في يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ، بمنزله في الشعبين برجال ألمع.

الشكيمة تردع المخطئ وتقوّمه، ومن الواضح هنا أن الشاعر حين يكاشف هذا الأمير بهذا الأمر، فإن ما يدفعه إلى ذلك هو انتماؤه أيضاً إلى قبيلة بني مغيد، حيث دفعه الحدَب على قومه، وعلى الأمير إلى معاتبته، والإشارة إليه أن التصالح مع الأتراك من شأنه أن يلحق اللوم ليس بالأمير فحسب، وإنما بقومه بني مغيد.

التراث الشعري لا يحتفظ بهذه الأبيات فحسب عن هذا الأمير، بل يذكر أيضاً بعض الأبيات الأخرى المتعلقة بفترة هذا الأمير مثل قول أحد الشعراء:

يا الأمير اسمع لشور أهل العزايم قد وعدنا الطير بأسوار الحديدة

وأن يظــل الترك بأيديـنا لزايــم وأن نروّح باشة أهل الشام ريدة[١]

والأبيات واضحة جداً لمن تأملها، ذلك أنها تخاطب الأمير وتحضه على غزو الحديدة، وأن مقاتلي عسير قد وعدوا الطير، أي النسور على أسوار الحديدة، كناية عن أنهم سيهاجمون المدينة، وسيطعمونها من لحم خصومهم الأتراك، وفي أسلوب يحمل التهديد والوعيد يقرر الشاعر في البيت الثاني بأن الأتراك في الحديدة سيكونون مأسورين، وأن قائدهم سيكون سيقتاده مقاتلو عسير إلى ريدة إحدى معاقل الأمير محمد بن عائض في عسير.

إن هذين البيتين يوثقان إقدام الأمير محمد بن عائض على مهاجمة الحديدة عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، وما أعقبه من تداعيات خطيرة، كان منها إرسال حملة محمد رديف باشا التي اعتبرها أحد الباحثين المتخصصين الحملة الأقوى التي ترسلها الدولة العثمانية في تاريخها شرقي قناة السويس[٢]، وفي هذا السياق يروي أحد المصادر التاريخية خبر الاستعدادات الضخمة لهذه الحملة العسكرية، فيقول: "فهبّت نسمات خليفة الله بالفتح، والظفر، وأقسم ليجهزنّ عليه عساكر منصورة بإذن الله براً وبحر، ولو كان قومه مثل ربيعة ومضر، وتتابعت العساكر في شهر الفطرة والقعدة، وكنت يومئذ بجدة، فرأيت من الميرة والذخائر ما

(١) رواية علي بن عائض الجوني السابقة. وريدة: هي بلدة تقع في سفح الطور الغربي المطل على تهامة، كانت مقراً لعددٍ من أمراء عسير مثل: الأمير سعيد بن مسلط، والأمير علي بن مجثل، والأمير عائض بن مرعي، وبسبب حصانتها الطبيعية، وكثرة معاقلها، فقد كانت المعقل الأخير الذي تحصن فيه الأمير محمد بن عائض من قوات رديف باشا عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م. انظر: آل قطب، الأمراء اليزيديون، ص٨٠، ٩٢.

(٢) آل زلفة، محمد عبد الله: وقفات مع فصول من تاريخ أبها، مقالة منشورة في صحيفة الجزيرة السعودية، العدد: ٩٩٦٠، الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ الموافق ٥ يناير ٢٠٠٠م.

يعجز عن تحصيله كل ملك في الدنيا قاهر"[١]. ونتيجة لهذه الحشود العسكرية، والتي يبدو أنها زحفت جنوباً حتى استولت على محايل في تهامة عسير، يروي هذا المصدر أبياتاً شعرية للأمير محمد بن عائض يستثير فيها حماسة مقاتليه، فيقول:

عسير يا أهل الفعايل لا بد من حيّ يموت

والترك حلّوا في محايل ملوا البنادر والخبوت[٢]

ومن الواضح هنا أن الأمير محمد يروم من هذه المناداة الواردة في أبياته إلهاب حماسة المقاومين، ويبدو أن نداءاته ترددت أصداؤها، حيث ردّ عليه أخوه الأمير سعد[٣] بقوله:

والله إنا ما بغينا واعتدينا غير عز الدين نمشي في صلاحه

والله إنا ما نقصر إذ بدينا باذلين الروح عقب الموت راحة[٤]

وهنا يضع الأمير سعد بن عائض في مطلع أبياته لساناً ناطقاً لأخيه أمير عسير محمد بن عائض مقاتليه، ومواليه، مؤكداً أنهم في أعمالهم السياسية والعسكرية لم يصدر منهم البغي، أو الاعتداء المجرّمتين في منظومة القيم الإسلامية، وأن أعمالهم ما كانت مراميها سوى الإصلاح، مؤكداً في الوقت عينه أن البسالة ستكون حاضرة، وأن التقصير ممتنع حالما يبرز المقاتلون من عسير في ميادين المعركة، وأنهم لن يتوانوا عن بذل أرواحهم ومهجهم، معتبرين أن الموت ينظرون إليه بوصفه مطلباً وراحةً من كل عناء.

وعلى غرار الأبيات السابقة التي أطلقها الأمير السابق، وفي المناسبة عينها، يقول شاعر آخر، لم تحدد المصادر اسمه:

عسير ما تزفي[٥] البيارق إلا على دين الرسول

---

(١) الحضراوي، أحمد بن محمد: تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير، (مخطوط)، ج٢، ورقة: ١٥٤، صورة منه في مكتبة مقبول الزيلعي، ولدى الباحث نسخة منه.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ورقة: ١٥٤.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص١٥٤.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ورقة: ١٥٤.

(٥) تزفي: الزفيف هو سرعة المشي مع تقارب الخطو. انظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، ص١٨٤٢.

والبرق يبرق في المشارق والرعد تقفاه السيول[١]

الشاعر هنا يشاطر الأمير سعد في استحضار البُعد الديني في هذه الحرب، مؤكداً أن المقاتلين العسيريين لا يقاتلون إلا اقتناعاً منهم بأنهم يقاتلون من أجل نُصرة الدين، وأنهم على الحق والصواب، مشبّهاً هؤلاء المقاتلين بأنهم في الأفق البعيد كالبرق والرعد، الذي تأتي من بعده السيول الهادرة، بحيث تأتي على كل ما يقف أمامها!

لقد كشفت الأبيات السابقة مشاعر الأمير محمد وأخيه، ومشاعر بعض مقاتليهم، وبيّنت بجلاء ما يعتمل في أعماقهم تجاه حملة رديف باشا، بحيث أبرزت جلياً معنوياتهم العالية، وتطلع أنفسهم إلى الانتصار على تلكم الحملة، على أن ذلك كله لم يكن كفيلاً بانتصارهم، ذلك أن نتائج المعارك الضارية بين الطرفين كانت في صالح حملة رديف باشا، حيث تمكنت بعد قتال شرس، وعنيف من الإطاحة بحكم الأمير محمد بن عائض، وقتله، والسيطرة على ريدة عام ١٢٨٨هـ/١٧٨١م[٢]، والحال أن التراث الشعري في عسير حفظ لنا قصيدة أحد شعرائها، وهو الشاعر محمد بن ناصر الشهراني، جسّدت قصيدته ما يعتمل في مخيال المجتمع بعسير عن هذه المعارك، وتطرقت للكثير من سير الأحداث التاريخية المريرة المرتبطة بهذه الحملة، حيث ابتدأ الشاعر ابن ناصر بالثناء على الله، وإفراده بالوحدانية، عبر قوله:

يا الله إنا طلبنا وجـه ربي ذا تعلوى على الكرسي حجابه
مالك الملك ذا ينفي ويثبت عالم الغيب والخافي درى به[٣]

ثم يقول واصفاً الحشود العسكرية العثمانية:

ثم خله وهو قد ناض طيفي باكر في البحر يزفي سحابه

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ورقة: ١٥٤.

(٢) لمعرفة التفاصيل التاريخية المتعلقة بانتصار هذه الحملة، والإطاحة بحكم الأمير محمد بن عائض. انظر: الحفظي، مجموع في تاريخ عسير، ص٢٥٠ – ٢٥٤. ولا ريب أن ثمة عوامل عديدة وراء انتصار رديف باشا، بعضها يتعلق بعوامل إستراتيجية، وعسكرية، فضلاً عن عوامل أخرى تتعلق بالأوضاع الداخلية في إمارة الأمير محمد، بل إن من بين هذه العوامل ما يمكن وضعه في خانة الصدفة التاريخية، مثل: انفجار حصن مسمار المفاجئ بالسقا ومقتل جميع المدافعين عنه!. للنظر في هذه العوامل يمكن مراجعة ما عالجه أحد الباحثين في أثناء سرده لسقوط إمارة الأمير محمد بن عائض. عيسى، علي أحمد: عسير ١٢٤٩ – ١٢٨٩هـ، منشورات نادي أبها الأدبي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٦٣ – ٣٨٤.

(٣) النعمي، شذا العبير، ص٣٦٧.

سبرة[١] سيلها جاء له دمور ما بقى عقم إلا ما سقى به
دولة ضاق منها الساحلين والبحر ضيق المرسى جلابه
دولة خرّجها طفر العساكر مثل جند الثريا في اعتصابه
يمّن بهم رديف إلى محايل[٢] واتخذ به قلاعٍ للحرابة
واستراحوا في أم الجرم حتى وصلهم كل خوان كتابه
كتبوا من رديف إلى المقدم قال قابل جلبكم ما لنا به
فانثنى أبو سعد لف العرايف[٣] قال جانا من الباشا كتابه[٤]

والواقع أن الإيغال في القصيدة والمضي في قراءتها يعطي معلومات وتفاصيل تاريخية عن حملة رديف باشا، فالشاعر يومئ إلى أن ثمة توطأً بين بعض الرجال في عسير وبين رديف باشا، ويبدو أن ذلك جعل الأمير محمد يطرح هذه المسألة على رجالاته حيث يقول الشاعر على لسان الأمير:

خبروني بعلم ليس غيره أو نجاوب وننظر كم جوابه
قالوا أحسن بنا ظنك وبشّر سعد له من له عسير الهول لابة
والذي خان أفاك مهتّم والصنانيع تعبى له ربابة
والذي خان في المجلس يقرع ويبدل من الشيلة زهابه[٥]

(١) سبرة: بفتح السين، وهي الأجواء والغيوم المطيرة التي تستمر في الهطول لعدة أيام.

(٢) محايل: مدينة مشهورة تقع في تهامة عسير، تقع على ضفّة وادي تية الشمالية، وهي على طريق المسافر من أبها إلى القنفذة. انظر: حمزة، فؤاد: في بلاد عسير، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط٢، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص١٦٣، ١٦٤؛ النعمي، هاشم: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ، ص٢٨، ٢٩.

(٣) العرايف: هم النواب والأعيان.

(٤) النعمي، شذا العبير، ص٣٦٧.

(٥) المرجع السابق، ص٣٦٨.

ويمضي ابن ناصر في قصيدته التي يبدو أنه رام أن تكون سرداً تاريخياً لوقائع حملة رديف باشا، وسقوط إمارة محمد بن عائض في عسير، فيشير إلى أن هذا الأمير حشد قواته لملاقاة قوات رديف باشا صوب عقبة شعار المفضية على وادي تيّة إلى الشمال من أبها والسقا، حيث يقول الشاعر:

قال لا بأس نمرق فرع تية[١] لين ذا العلج يرجع له صوابه[٢]

والملاحظ هنا أن الشاعر يورد على لسان الأمير مفردة (العلج) في إشارة إلى رديف باشا، وهذا يحيل جلياً إلى أن الأمير والشاعر على حدٍ سواء يحمل كلاهما ما يسمى حالياً بـ (البعد القومي)، وأنه واحد من الأسباب التي دفعت أمراء عسير إلى مقاومة العثمانيين، بوصفهم كانوا ينظرون إلى العثمانيين على أنهم من الغزاة العجم الذين يرومون الهيمنة على عسير، وفرض نفوذهم عليها.

ويتابع الشاعر سرد أبياته المليئة بالتفاصيل التاريخية عن حملة رديف باشا، فينبّه على أن مرشدي الحملة من المأجورين[٣] أشاروا على رديف باشا سلوك طريق أخرى غير عقبة شعار، وهذا ما يتفق مع المصادر التاريخية المؤرخة لهذه الأحداث[٤]، حيث ورد في قصيدته:

أثر دلالـــــهم قال القـــــبائل طرحـــوا بأودية تية حــزابة

حمـــــلوا بالعساكر والمـــدافع حرسة من حلي تقطع جنابه

لم يقع وقت العصر إلا وقدهم رأس طور ومطلاعه مهابة

طرحوا باحة المغوث[٥] وقالوا ذا الملك ما قد أدركنا جوابه

---

(١) تيّة: بفتح التاء، فياء مشددة، وادٍ فحل، روافده وادي تهلل، يقع شمالي محايل عسير، ينحدر من الجنوب إلى الشمال الغربي حتى يصب في وادي حلي. انظر: الحربي، المعجم الجغرافي، ج١، ص٣٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦٨.

(٤) لمعرفة هذه الأحداث التاريخية بدقة. انظر: عيسى، عسير، ص٣٦٤.

(٥) المغوث: اسم عريق ذكره الهمداني في القرن الرابع الهجري، وهو يُطلق على وادٍ خصيب مشهور، ينحدر من قمة تهلل، ويخترق قرى باحة ربيعة، ويفيض في وادي طبب أحد روافد وادي تيّة. انظر: الهمداني، الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢٣٠؛ الحربي، علي إبراهيم ناصر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (منطقة عسير)، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت، ١٤١٨هـ، ج١، ص٢٠٧.

واصطبحنا نهار السبت يوماً ضل للغمر بامنالة[١] سحابة

وانجـــررنا لـــهم وآثر الدنيا في دبـور وذللتـــنا العيـابة[٢]

وهنا يتحدث الشاعر عن مباغتة الحملة للأمير محمد بن عائض، ففي الوقت الذي كان هذا الأمير مرابطاً بقواته في شعار، صعدت قوات رديف باشا من عقبة الصماء، وتمركزت في باحة ربيعة، لتصبح الأقرب إلى معاقل الأمير محمد في السقا وريدة، ويشير الشاعر إلى أن الأمير محمد أغذ سيره لإيقاف قوات رديف باشا، واشتبك معها في امنالة، غير أن قوات رديف باشا واصلت تقديمها، حتى ضربت حصارها على السقا، يقول الشاعر عن هذا الحصار، ومشيداً ببعض المكونات القبلية المدافعة عنها مثل: بني مغيد، وعلكم، ورجال ألمع:

حملوا بالثلوث ألفين صـــف كل طـــابور قادت له سرابة

قد حصـون امسقا فيها رجال كل غمـــــر جسور يمتنى به

من معـيد الخـطا نقوٍ وعلـكم أفضوا القتل في الترك الخيابة

نازنا من رجـال ألمـــــع فـهود من في العلم الأعلى يمتنى به[٣]

على أن وقائع حصار السقا لم تجر وفق ما أمّله المقاتلون العسيريون وأميرهم، فقد كان لانفجار حصن مسمار، الذي يعد من أمنع وأكبر معاقل السقا، ومقتل كل من فيه من المقاتلين والمدافعين عن البلدة دور كبير في انسحاب بقية المقاتلين من السقا، ما أدى إلى سيطرة قوات رديف باشا عليها، وفي هذا الشأن يقول ابن ناصر، وإكمالاً لأبياته السابقة:

قدر الله على مسمار حكماً فأخذ الأرتاب بارود حثا به[٤]

---

(١) امنالة: تُنطق على لهجة الأهالي في عسير، باستبدال إم بدلاً من أل التعريف، مع فتح النون، وهي قمة جبلية ضمن جبال تهلل، تقع في أقاصيه الشمالية مما يطل على باحة ربيعة ورجال ألمع. انظر: النعمي، تاريخ عسير، ص٣٤٣.

(٢) النعمي، شذا العبير، ص٣٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦٨.

(٤) انفجر حصن مسمار وفيه مئات المقاتلين العسيريين المدافعين عن بلدة السقا، ما أدى إلى انهيار المعنويات لدى بقية المقاتلين في المعاقل الأخرى، حيث آثروا إخلاءها، والانسحاب من السقا، وتختلف الروايات التاريخية حول الأسباب التي أدت إلى انفجاره، بيد أنها تتفق على أن ناراً تسربّت إلى مستودع الذخيرة، وعلى إثر ذلك انفجر الحصن بمن فيه. انظر: ابن مسفر، عبد الله بن علي: أخبار عسير، المكتب الإسلامي، بيروت، المرجع السابق، ص٣٦٨.

انسحب المقاتلون العسيريون على إثر ذلك إلى ريدة، كخط دفاع أخير، والتي ما كان من الممكن أن يسيطر عليها رديف باشا بسبب مناعتها، وبسبب طرقها الملتوية التي لا يمكن معرفتها لا سيما من جهة الغرب، بيد أن القائد العثماني مختار باشا ومعه عددُ من القوات العثمانية تمكنت من النزول في ثغر الشقيق البحري، والسير عن طريق وادي مربة المجهول، والذي سار فيه وفق إرشادات بعض المأجورين حتى تمكن من موافاة ريدة من جهتها الغربية، ونصب المدافع الثقيلة صوب المعاقل والحصون التي يتحصن فيها الأمير محمد بن عائض ومقاتلوه، وهكذا أصبحت ريدة بين شقي رحى، بين قوات رديف باشا شرقاً، وقوات مختار باشا غرباً، وفي هذا يقول ابن ناصر، متمماً لأبياته السابقة:

ربع مختار طلع الوادي الأبيض ظلوا الناس من طرقه هرابه

وأهب محجى المدافع في مكان كأنه الجن ذا يحثا ترابه[١]

ويختم الشاعر قصيدته بصرخته التراجيدية في القبائل، مشيداً بالأمير محمد بن عائض، منوّهاً بكرمه ورمزيته الكثيفة، مستحضراً أن خصومه – الأتراك – هم من العجم الذين لا يقيمون وزناً –وفق رؤيته– للمعروف، حيث يقول:

يا القـــبائل فقد تم كل نجـــم والهـلال الذي كـنا نرى به

يا القـــبائل فقد تم كل غـــمر كان يسـوى ملا وادٍ حـزابه

يا القـــبائل فقد تم كل ظـــفر لا يغـلق عن الضيـفان بابه

والعجـم من صـنع فيهم صنيعة مثل من راق في البطحا شرابه

ختمـها هللوا واستغـــفروا الله عدّ ما قد قـرا القـاري كـــتابه

ثم صـلوا على الهادي محـمد ذا مشرف على جمع الصحابة[٢]

(١) المرجع السابق، ص٣٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦٨، ٣٦٩.

الخاتمة

لقد حاولت هذه الدراسة أن تبحث في الدلالات التاريخية للتراث الشعري الشعبي، بوصفه مصدراً من مصادر تاريخ عسير في عصرها الحديث، حيث استقصت وأوردت العديد من النماذج الشعرية المتعلقة بالأحداث التاريخية في عسير، ورصدت ما حفظته الذاكرة الشعبية من قصائد وأبيات شعرية، قيلت في مناسبات سياسية متعددة، ومتفاوتة زمنياً.

إن هذا الدراسة استهدفت في المقام الأول حفظ ما يمكن حفظه من التراث الشعبي الشعري في المجال السياسي، خوفاً عليه من الضياع، والإهمال خاصة مع تعاقب الزمان، وموت الكثير من العارفين، والرواة، فضلاً عن كونها توخت حفظه ونشره رغبة في اجتراح مصدرٍ تاريخي ربما أفاد الباحثين في تاريخ عسير في توظيفه في بحوثهم، والاستئناس به، وترجيح آرائهم التي ربما كانت بعض هذه النماذج الشعرية معينةً لهم في ذلك.

والخلاصة أن هذه الدراسة أفضت إلى عددٍ من النتائج، أهمها:

أولاً: استقصت الدراسة جمع أهم وأبرز النماذج الشعرية الشعبية في عسير خلال القرن الثالث عشر الهجري والتي جاءت في مناسبات مختلفة، ومتفاوتة زمنياً، بعضها جاء إبان عهد الدولة السعودية الأولى، والبعض الآخر جاء في الفترة اللاحقة المعنية بمقاومة أمراء عسير لحملات محمد علي باشا، وتمدد نفوذهم على أجزاء واسعة من مناطق غرب وجنوبي الجزيرة العربية.

ثانياً: بيّنت الدراسة من خلال بعض النماذج الشعرية الدور العسكري الكبير الذي بذله أمراء آل المتحمي إبان عهد الدولة السعودية الأولى، ومقاومتهم الباسلة ضد حملات محمد علي باشا.

ثالثاً: أماطت الدراسة اللثام على الكثير من السياقات التاريخية التي قيلت في ضوئها هذه النماذج الشعرية، وشرحت الظروف التاريخية الحافة بالعديد من الأبيات الشعرية.

رابعاً: شرحت الدراسة بعض النماذج الشعرية المتعلقة بثورة الأمير سعيد بن مسلط على قوات محمد علي باشا سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م بما يوحي ما تركته هذه الثورة الكبيرة من أثر وجداني كبير في الذاكرة الشعبية في عسير.

خامساً: ساقت الدراسة بعض النماذج الشعرية المتعلقة بتمدد نفوذ أمراء عسير في اليمن لا سيما في زمن الأمير علي بن مجثل ت: ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، وخليفتيه الأمير عائض بن مرعي ت: ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م،

وابنه الأمير محمد ت: ١٢٨٨هـ/١٨٧١م بما يوحي أن هذا التمدد كان مرضياً عنه من الناحية الاجتماعية، حيث كانت هذه النماذج الشعرية تحمل دلالات الفخر والزهو، وتحثّ هؤلاء الأمراء على القتال والسيطرة على تلك المناطق.

سادساً: أوردت الدراسة نماذج شعرية متعددة تخص سقوط إمارة الأمير محمد بن عائض على يد حملة رديف باشا عام ١٢٨٨هـ/١٨٧٢م، وكشفت عما يعتمل في المخيال الاجتماعي عن تلكم الأحداث، كما بيّنت مشاعر المقاومين من أبناء عسير تجاه قوات العثمانيين، مرجّحة صحة العديد من الأخبار التي أوردتها المصادر التاريخية المتعلقة بالمعارك مع العثمانيين، مثل حادثة: انفجار حصن مسمار في السقا، وغيرها من الأحداث.

سابعاً: كشفت الدراسة عن أهمية التراث الشعري الشعبي من حيث كونه سجلاً للعديد من الأحداث التاريخية، وعليه فإنه استقصاءه من مظانه يمكن أن يقدّم معلومات تاريخية جليلة تخص منطقة عسير، فضلاً عن كونه يمكن أن فكرةً عما يعتمل في المخيال الاجتماعي حيال العديد من الأحداث التاريخية المهمة.

المصادر والمراجع التاريخية

أولاً: الوثائق

رسالة من الأمير علي بن مجثل إلى العلامة إبراهيم بن أحمد الزمزمي، بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٤٩هـ، مكتبة الأستاذ عبد الخالق بن سليمان الحفظي، ولدى الباحث صورة منها.

ثانياً: المخطوطات

الحضراوي، أحمد بن محمد: تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير، (مخطوط)، ج٢، صورة منه في مكتبة مقبول الزيلعي، ولدى الباحث نسخة منه.

الحفظي، إبراهيم بن زين العابدين، حولية في تاريخ عسير، أصلها في مكتبة علي بن الحسن الحفظي، ولدى الباحث نسخة منها.

الحفظي، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الملك العسيري، أصله في مكتبة علي بن الحسن الحفظي، ولدى الباحث نسخة منه.

عبد الكريم، محسن: لفحات الوجد، (مخطوط)، صورة منه في مكتبة سمير حسن آل هادي، ولدى الباحث نسخة منه.

العمراني، محمد بن علي: تحفة أفكار الخيرات بأخبار دولة آل خيرات، (مخطوط)، نسخة منه في مكتبة علي الصميلي، ولدى الباحث نسخة منه.

المتحمي، مداوي بن محمد (أبو دواس)، قصيدة شعرية مخطوطة، أصلها في مكتبة عبد العزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.

مجهول، مخطوط في تاريخ اليمن، نسخة منه في مكتبة جامعة الملك سعود، ولدى الباحث صورة منه.

ثالثاً: المصادر المطبوعة

البسام ، عبد الله بن محمد: تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، دراسة وتحقيق: إبراهيم الخالدي، شركة المختلف، الكويت، ط١، ٢٠٠٠م.

حوليات النعمي التهامية، تحقيق: حسين عبد الله العمري، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الحفظي، الحسن بن علي: مجموع في تاريخ عسير، تحقيق: علي بن الحسن الحفظي وعلي عوض آل قطب، منشورات النادي الأدبي بأبها.

الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، ط٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

العجيلي، محمد بن هادي: الظل الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سعود، تحقيق: عبد الله أبو داهش، مازن للطباعة، أبها، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (لبعض علماء نجد الأعلام)، جمع: عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤٠٩هـ.

رابعاً: المصادر الأجنبية

سادلبير، جورج. ف: رحلة إلى الجزيرة العربية، ترجمة: عيسى أمين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

مانجان، فيلكس: تاريخ الدولة السعودية الأولى من كتاب (تاريخ مصر في عهد محمد علي)، ترجمة: محمد خير البقاعي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٤هـ.

خامساً: المراجع والدراسات التاريخية

الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

رفيع، محمد عمر: في ربوع عسير، دار العهد الجديد، بيروت، ط١، ١٣٧٣هـ.

آل سعود، نورة بنت محمد: أبها (بلاد عسير)، منشورات الأميرة نورة، المملكة المتحدة، ط١، ١٩٨٩م.

شاكر، محمود: شبه جزيرة العرب (عسير)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الصميلي، علي حسين: العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري، (د. ن. م)، (د. ط)، ١٤١٩هـ.

عبد الرحيم، عبد الرحمن: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

عسيري، علي أحمد عيسى: عسير دراسة تاريخية ١٢٤٩ – ١٢٨٩هـ، منشورات نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

فائع، أحمد بن يحيى: دور آل المتحمي في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى في عسير وما جاورها، مطابع الحميضي، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٧م.

آل قطب، علي عوض: الأمراء اليزيديون، طوى للثقافة والنشر والإعلام، بيروت، ٢٠١٣م.

ابن مسفر، عبد الله بن علي: أخبار عسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

السراج المنير في سيرة أمراء عسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

المقحفي، إبراهيم بن أحمد: معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء.

النعمي، هاشم بن سعيد: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الأمانة العامة لمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

شذا العبير من تراجم علماء وأدباء منطقة عسير، منشورات النادي الأدبي، أبها، ١٤١٥هـ.

سادساً: المجلات العلمية والصحف

ابن حميد، عبد الله بن علي: دور أمراء عسير في نشر الدعوة السلفية، منشورة في مجلة العرب، المجلد التاسع، رجب ١٣٩٤هـ إلى جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ.

آل زلفة، محمد عبد الله: وقفات مع فصول من تاريخ أبها، مقالة منشورة في صحيفة الجزيرة السعودية، العدد: ٩٩٦٠، الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ الموافق ٥ يناير ٢٠٠٠م.

سابعاً: الروايات الشفهية

رواية الأديب أحمد بن مطاعن يرحمه الله، صباح الاثنين ١٩ / ٧ / ١٤٣٠هـ بمنزله في حي الخالدية بأبها.

رواية سمير حسن آل هادي، مقابلة شخصية في يوم الأحد ٣ شوال ١٤٤٤هـ، بمنزله في حي العرين مدينة أبها.

رواية علي بن عائض الجوني، مقابلة شخصية في يوم السبت ٩ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ.

رواية فهد بن عبد الله الأحمري، مقابلة شخصية في يوم الأربعاء ٦ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ، بمنزله في حي المنسك بأبها.

رواية وليد إبراهيم الزيداني، مقابلة شخصية في يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ، بمنزله في الشعبين برجال ألمع.

المصادر والمراجع العربية بالحروف اللاتينية

First: Documentations

Letter from al-Amīr ʻAlī ibn Mijthal ilá al-ʻallāmah Ibrāhīm ibn Aḥmad al-Zamzamī, bi-tārīkh 25 Shaʻbān 1249h.

Second: Manuscripts

al-Ḥaḍrāwī, Aḥmad ibn Muḥammad: Tāj tawārīkh al-bashar wttmh jamīʻ al-siyar, (makhṭūṭ), in the library of Mr. Maqbūl al-Zaylaʻī, and the researcher has a copy of it.

al-Ḥifẓī, Ibrāhīm ibn Zayn al-ʻĀbidīn, Ḥawlīyat fī Tārīkh ʻAsīr, in the library AL hifzi .and the researcher has a copy of it.

al-Ḥifẓī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Muḥammad: Tārīkh al-Malik al-ʻAsīrī, and the researcher has a copy of it.

ʻAbd al-Karīm, Muḥsin: lfḥāt al-wajd, (makhṭūṭ), in the library of Mr. ʿ Samīr Āl Hādī. The researcher has a copy of it.

al-ʻUmrānī, Muhammad bin Ali: Tuḥfat afkār al-khayrāt fī Dawlat Āl Khayrāt, paper: 50, a copy of it in the Ali Hussein Al-Sumaili Library, and the researcher has a copy of it.

al-Mutḥamī, Madāwī ibn Muḥammad (Abū Dawwās), Manuscript poem, a copy of it deposited in the private library of Abdul Aziz bin Suleiman Al-Mutahmi, and a copy of it is with the researcher.

Anonymous, A Chronicle on the history of al-Yaman, it in the library of King Saud University. The researcher has a copy of it.

Third: Printed Resources

al-Bassām, ʻAbd Allāh ibn Muḥammad: Tuḥfat al-mushtāq fī Akhbār Najd wa-al-Ḥijāz wa-al-ʻIrāq, al-mukhtalif, al-Kuwayt, Ṭ1, 2000M.

Ḥawlīyāt al-Niʻmī althāmyh, edited by: Ḥusayn ʻAbd Allāh al-ʻUmarī, Dār al-Fikr, Dimashq, Ṭ1, 1407h / 1987m.

Al-Ḥifzy, Al-Ḥassan b. ʿAlī: A Collection on the History of Asir, ed. ʿAlī b. Al-Ḥassan Al-Hifzy and ʿAlī ʿAwad Al Quṭb, Abha Literary Club publications, 1438 AH / 2017 AD.

- al-Durar al-sanīyah fī al-Ajwibah al-Najdīyah, collection: ʻAbd al-Raḥmān ibn Muḥammad ibn Qāsim al-ʻĀṣimī, ṭ6, 1417h / 1996m.

al-ʻUjaylī, Muḥammad ibn Hādī: al-ẓill al-mamdūd fī al-waqā'iʻ al-ḥāṣilah fī ʻahd mulūk Āl Saʻūd, edited by: Abdullah Abu Dahesh,

Mazen Printing, Abha, 1st edition, 1408 AH / 1988 AD.

Majmūʻah al-rasā'il wa-al-masā'il al-Najdīyah, collection: ʻAbd al-Salām ibn Barjas ibn Nāṣir Āl ʻAbd al-Karīm, Dār al-ʻĀṣimah, al-Riyāḍ, ṭ2, 1409H.

Fourth: Foreign References

Sādlyyr, Jūrj. F: Riḥlat ilá al-Jazīrah al-ʻArabīyah, Translated by: Issa Amin, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1st edition, 2005 AD.

Mānjān, Fīliks: The history of the first Saudi state from the book (The History of Egypt during the Era of Muhammad Ali), translated by: Muhammad Khair Al-Buqa'i, King Abdul Aziz House, Riyadh, 1424 AH.

Fifth: Historical References

Al-Hajri, Muhammad bin Ahmad: Majmu' al-Buladan al-Yaman and its Tribes, edited by: Ismail bin Ali al-Akwa', Dar al-Hikmah al-Yamaniyya, Sana'a, 2nd edition, 1416 AH/1996 AD.

Rafīʻ, Muḥammad ʿUmar: In the regions of Asir (memories and history), Cairo, 1373 AH / 1954 AD.

Āl Saʻūd, Nūrah bint Muḥammad, Abha (Asir country), Princess Noura Publications, United Kingdom, 1st edition, 1989 AD.

Shākir, Maḥmūd: Asir (Arabian Peninsula), Beirut, 1401 AH / 1981 AD.

al-Ṣumaylī, ʻAlī Ḥusayn, The relationship between the princes of Abu Arish and the princes of Asir in the thirteenth century AH, (d. n. m), (d. i.), 1419 AH.

Abd al-Rahim, Abd al-Rahman: Muhammad Ali and the Arabian Peninsula, University Book House, Cairo, 2nd edition, 1406 AH / 1986 AD.

ʿAsīrī, ʿAlī Aḥmad ʿIssa: Asir 1249 - 1289 AH / 1833 - 1872 AD, Abha, 1407 AH / 1987 AD.

Fā'i', Aḥmad ibn Yaḥyá: The role of the Al-Muthami family in extending the influence of the first Saudi state in Asir and its environs, Al-Humaidhi Press, Riyadh, 1st edition, 1426 AH / 2007 AD.

Al Quṭb, ʿAlī ʿAwaḍ: The Yazidi Princes, Beirut, 2013.

Ibn Misfir, ʿAbdullah b. ʿAlī:

Akhbār 'Asīr, The Islamic Office, Beirut, 1st edition, 1398 AH / 1978 AD.

Al-Sarrāj Al-Munīr in the Biography of the Princes of Asir, Beirut, 1398 AH.

Al-Maqḥafī, Ibrāhīm b. Aḥmad: The Lexicon for Yemeni Countries and Tribes, Sanāʾ, 1422 AH / 2002 AD.

Al-Nuʿamī, Hāshim b. Saʿīd:

Asir History, Past and Present, General Secretariat for the Celebration of the 100th Anniversary of the Founding of the Kingdom of Saudi Arabia, 1419 AH.

Shadhā Al-ʿAbīr from the biography of scholars, writers and intellectuals in the Asir region, Abha,1415 AH.

Sixth: Journals and Newspapers

Ibn Ḥamīd, 'Abd Allāh ibn 'Alī. The role of the princes of Asir in spreading the Salafist call, published in Al-Arab Magazine, Volume Nine, Rajab 1394 AH to Jumada al-Akhirah 1395 AH.

Āl Zulfah, Muḥammad 'Abd Allā: Pauses with chapters from the history of Abha, an article published in the Saudi Al-Jazeera newspaper, issue: 9960, Wednesday 28 Ramadan 1420 AH corresponding to January 5, 2000, AD.

Seventh: Interviews

The narration of the writer Aḥmad ibn Maṭā'in, may God have mercy on him, on Monday morning, 7/19/1430 AH, at his home in the Khalidiya neighborhood in Abha.

The narration of Samīr Āl Hādī, A personal interview on Sunday, Shawwal 3, 1444 AH, at his home in the Al-Areen neighborhood of Abha.

The narration of 'Alī ibn 'Ā'iḍ al-Jūnī, Personal interview on Saturday 9 Jumada al-Awwal 1444 AH.

The narration of Fahd ibn 'Abd Allāh al-Aḥmarī, A personal interview on Wednesday, Jumada al-Awwal 6, 1444 AH, at his home in the Al-Mansk neighborhood in Abha.

The narration of Walīd Ibrāhīm al-Zaydānī, A personal interview on Friday, Jumada Al-Awwal 8, 1444 AH, at his home in Al-Sha'bain in Rijal Alma'.

ملحق رقم (١)

(درماح الناس) جاءت هذه العبارة كأحد العناوين الفرعية في مخطوط تاريخ الملك العسيري

مخطوط تاريخ الملك العسيري، مكتبة علي بن الحسن الحفظي بأبها

ملحق رقم (٢)

قصيدة الأمير الشاعر مداوي بن محمد المتحمي الملقب بأبي دواس

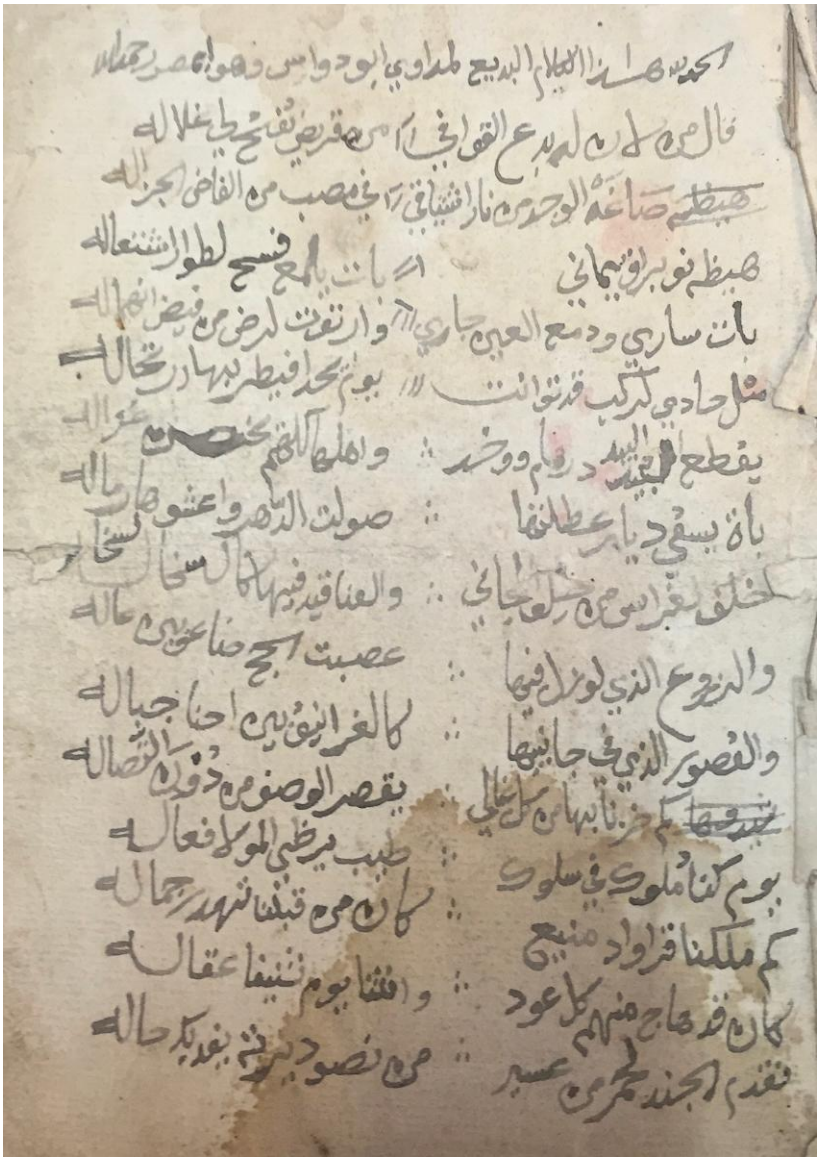

مكتبة عبد العزيز بن سليمان المتحمي

ملحق رقم (٣)

رسالة الأمير علي بن مجثل إلى العلامة الزمزمي بشأن استيلاء قواته على الموانئ اليمنية

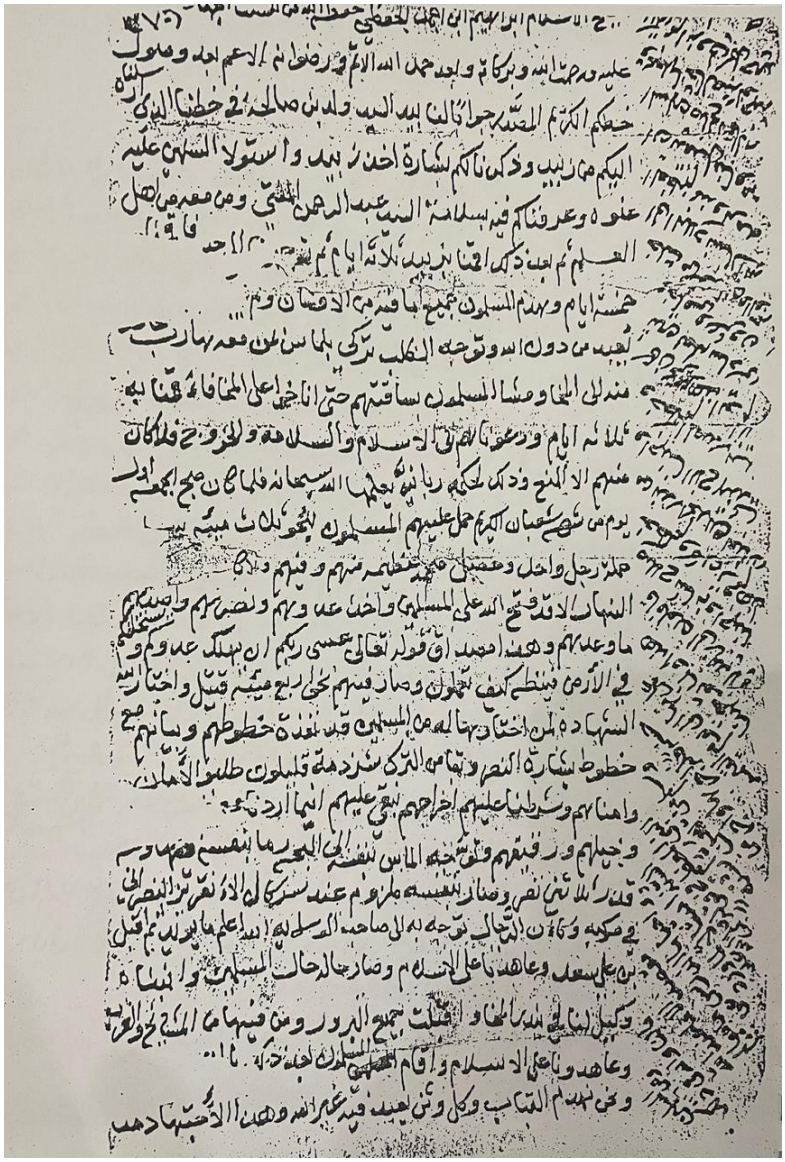

مكتبة عبد الخالق بن سليمان الحفظي – رحمه الله – في عثالف برجال ألمع

ملحق رقم (٤)

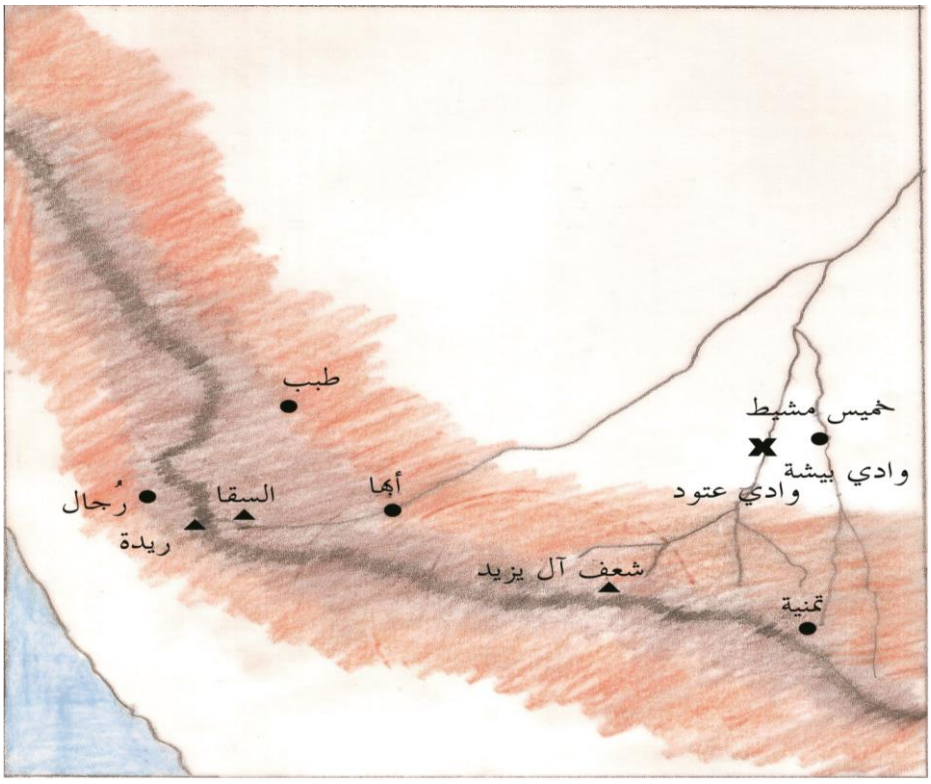

خريطة توضح حواضر منطقة عسير التاريخية

المصدر: آل قطب، الأمراء اليزيديون.

The Historical Significance of Folk Poetry Literature in Assir during the 13*th* Century AH/ 19*th* Century CE

Ali Awad ALqotub

Associate Professor in the Department of History, King Khalid University, KSA

alawasiri@kku.edu.sa

Abstract. This study examines folk poetry literature because it involves of important historical significance, indicting serious events that occurred in Assir during the 13th century AH/19th century CE. It also explores interesting models of folk poetry relating to historical events that occurred in this region by considering what is recorded by the local and oral memory of poems and rhymes that were said on different occasions throughout long times. The study aims to collect as much as possible of poetic folklore to preserve it as an important source of the history of Assir because this would contribute to documenting many historical events, in addition to the fact that this study seeks to interrogate such historical significances in order to employ and quote it. As a result, this study presents itself as an applied case of how to deal with folk poetry in the field of historical research, so that it can be a model to adopt by both the research and methodological sides.

*Keywords***:** The historical significance, folk Poetry literature, Assir.